أنين المشايخ

بقلم/ حاتم إبراهيم سلامة

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى الرمز الشاهق والطود الشامخ في دنيا العلم والعلماء فضيلة الشيخ العالم الداعية المجاهد الشجاع مولانا محمد الغزالي الذي أحيا ضمائر العلماء بما ذكّر من واجباتهم ودون من مسؤولياتهم، بل بما سجل في حياته وسلوكه وسيرته من صورة النموذج الأمثل للعالم الرباني الصادق النبيل الذي كسر كل حواجز الدنيا انتصارًا للحق واعترافا بالحقيقة

مثل العلماء في الناس كمثل النجوم في السماء يهتدى بها.

أبو الدرداء

مقدمة

كان لابد لنا من كتابة هذه الخواطر، لتكون رصدًا لحياة هذه الشريحة المهمة من حياة الأمة على مر التاريخ، ورصد كثير من هيئاتها ومواقفها التي كان لها الأثر البالغ في كثير من التغيرات المصيرية التي حكت عنها الأيام.

ما أسعد الأمم يوم أن يرزقها الله تعالى بالعلماء الربانيين المخلصين العاملين، الذين لا يرعون ولا يخشون ولا يعبدون ولا يعظمون غير الله سبحانه، وما أتعس الشعوب يوم أن تبتلى بالعلماء الخونة الفجرة الذين يلهثون وراء الدنيا ويبيعون دينهم بدنياهم.!

إننا اليوم عن علماء الدين نتحدث..

ويمكن لك أن تعتبر ما في هذا الكتاب سياحة علمية، أو تسجيلا لمواقف ناصعة، وأخرى مخزية، حفل بها سجل العلماء على اختلاف أنواعهم ومشاربهم، لكنك لا يمكن لك أبدًا أن تغفل أن هذا الكتاب صيحة مدوية وإنذارًا صارخًا، يدعم العلماء الصادقين، وينزل كالصاعقة على العلماء الفاجرين.

سترى فيه ما يجب وما يجوز في حقهم، وعن علاقتهم بنا وعلاقتنا بهم، وتقديرهم لنا وتقديرنا لهم.. سنرى ما هو العالم وكيف يكون وما هي أخلاقه وسماته والصورة التي أرادها له الإسلام؟

نعم هو سفر تستطيع أن تستلهم منه تلك الصورة الراقية الرائعة للعالم العامل الذي يلتزم جادة الحق والصواب، ويراعي الله تعالى في خطواته وأقواله وأفعاله، وبين ذلك العالم الذي يمثل الصورة القبيحة المنفرة، للإنسان الذي لا يحترم علمه، ولا يقدر مكانته ويسعى وراء شهواته فيرخص دينه، ويهين علمه، ويهدر مكانته.

كانت هناك أصوات عالية ومازالت تعلو إلى اليوم تحاول تقزيم هذه الفئة، وبتر أي باعث يحاول أن يوجد لهم سلطانا على قلوب الجماهير لأن هذا السلطان هو أكبر خطر وتهديد لأفكارهم

ومصالحهم، لقد شنت كثير من الجهات حملاتها الممنهجة لتشوية صورة العلماء بالسخرية تارة، وبالاستهزاء تارة أخرى، ليقلوا في أعين الناس، ويصبحوا مثلا للاستهتار والاستخفاف.

اجتهدوا كثيرا أن يجعلوا عظمة البشر في أي قطاع وأي فصيل غير فصيل العلماء.

اجتهدوا كثيرا أن يثنونهم عن عالم القدوة والقيادة، حتى ينفصل الدين عن الحياة بزوالهم وضمور مكانتهم.

نتعلم من هذا الكتاب وبإبحارنا مع أفكاره وصفحاته أشياء كثيرة عن التاريخ والواقع، ذلك الواقع الذي يحمل ما لا ترضى عنه النفس، وما يئن له الفؤاد، حينما يتربع على عرش المؤسسات الدينية، علماء لا يمثلون الصورة القشيبة المهيبة الزاهية التي كانت لعلماء الدين من سلفنا الصالح.

ليقرأ ما كتبناه خريجو الأزهر وأبناء التيارات الدينية، وشباب الجماعات الدينية، حتى يعرفوا الأدب والصراط الذي يجب أن يكونوا عليه كعلماء في المستقبل، بل يعرفون الرسالة المنوطة بهم والتي كلفهم بها وحملهم إياها دينهم يوم أن سلكوا دربه وطريق دعوته والانتصار له.

حاتم إبراهيم محمد سلامة

حاجتنا إلى تربية الشيوخ

رحم الله شيخنا الغزالي الذي كان يؤثر في نفسي بكل كلمة وكل جملة، ومن ضمن كلماته التي لا أنساها، قوله حينما رد على من هاجموه من فتية السلفية وعلمائها: أولئك لم يجدوا شيوخًا يربونهم.!

استلفتتني العبارة، وتأملت معانيها، وتنبهت إلى ضرورة الشيوخ في حياتنا، وأهمية الأخذ عنهم والنشأة على أيديهم.!

إن الزمن الذي يفقد فيه الإنسان إنسانيته، وينحرف في سلوكه، ويحيد عن مسار ربه، لا شك أنه زمن يفقد الإنسان فيه كثيرًا من عناصر الهداية، والتي من أهمها وجود الشيوخ الربانيين المربين الذين يقودون مسيرة الحياة، ويوجهون الناس لطريق الهداية.

ولأجل إضلال الناس.. كانت ضربات التغريب موجهة بكل قوة لفكرة الشيوخ واحترام مكانتهم، وكانت هناك محاولات ضخمة، لهدم مكانتهم مقامهم في النفوس، وخلخلة الثقة التي يوليهم بها المجتمع.

ولا يمكن لدعوات الاصلاح التي تُريد تحقيق التأثير والنجاح، أن تتخلى عن فكرة الشيخ والمريد، وهي الفكرة التي تبناها الكثيرون من الدعاة والمصلحين، كما لا نجد مُصلحًا كبيرًا بلغت شهرته الآفاق، كان له تأثيره الكبير في مجتمعه، إلا ونجد في حياته شيخًا رسم له المسار السليم، ووضع قدمه على الطريق الصحيح.

وهو ما نجده في حياة الكثيرين من العلماء والمجددين كالإمام محمد عبده، الذي استطاع الشيخ درويش أن يحول مسار حياته، ويصعد به إلى عالم كبير صار معه شيئًا آخر.

وأمام فكرة الشيخ والمريد، يتمثل أمامنا طريقين أو طريقتين، إحداهما وهي السلفية التي ترفض فكرة الشيخ والمريد، ويسير نظامها على تلقي العلم الشرعي فقط، دون صحبة شيخ يُربي الخلق والسلوك بجوار العلم، ومن هنا نجد أغلب قطاعاتهم في انحدار فكري أو سلوكي، وقد رأينا

كثيرًا منهم في السنوات الأخيرة، كيف خرج منهم الخونة والفجرة والكذبة والغدارين والمنافقين، لأنهم لم يتربوا، ولم يأخذوا قسطًا وفيرًا في تقويم السلوك على يد المربين من شيوخ المعرفة الروحية.!

أما الطريقة الثانية فهي الصوفية المنحرفة، وأنا دومًا أصر على لفظ المنحرفة، إيمانا مني بأن هناك صوفية معتدلة تسير على الكتاب والسنة وتدمج مسيرتها الروحية في ضوء الكتاب والسنة.. (وقليل ما هم) فالمنحرفون اتخذوا فكرة الشيخ والمريد في طريق السلوك فقط، ورفضوها في طريق العلم، أي أنهم عكس السلفية تمامًا، ومن هنا نجدهم يقعون في كثير من البدع المنكرة والمخالفات الشرعية.!

والصواب الذي تنجح فيه فكرة الشيخ والمريد، وتنتج إنتاجا عظيمًا وتحقق كثيرًا من النضج والاتزان وأفضل النتائج، أن تكون العلاقة بين الطرفين محكومة بإطار الشرع، لا تخرج عنه ولا تحيد.. وأن ترتسم كل حركة وكل همسة، بين الشيخ والمريد، في ضوء الكتاب والسنة. بلا شرود ولا تحريف ولا تخريف.

إن رجال التربية الروحية، أكدوا حاجة المريد إلى شيخ يأخذ عنه، ويقتبس من نوره، وأن صحبة الشيخ لا تغني عنها قراءة الكتب، حتى قال بعضهم: من لا شيخ له فشيخه الشيطان..

ويقول القشيري في رسالته: يجب على المريد أن يتأدب بشيخ، فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبداً، وسمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس، فإنها تورق لكن لا تثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفساً فنفساً فهو عابد هواه، ولا يجد نفاذاً.

ويقول أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى: "فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة، ليهديه إلى سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة.. فمن سلك سبل البوادي المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها فإنها تجف على القرب،

وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر، فمعتَصَمُ المريد، بعد تقديم الشروط المذكورة، شيخه، فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد.!"[1]

هل يمكن اليوم أن يوجد الرجل الرباني الطاهر الذي يصلح حياة الناس، ويكون في المجتمع كمنارة هادية في دياجير الظلمات.؟

هل يمكن أن يوجد اليوم صاحب هذا القلب الذي يشع بالإخلاص واليقين والصدق والعفة والنقاء، فيسحَر الناس بجميل أخلاقه ويؤثر في طبائعهم وسلوكهم بعظيم خِلاله وصفاته؟ إن رجلا كهذا، وإن مجتمعًا يوجد فيه رجلا كهذا، لهو هدية من الله تعالى وخيرًا عميما ساقه لهذه الأمة، واختار أن يوجد فيها هذا المصلح العظيم، الذي يُقربها من الله سبحانه ويجذب هوى شعوبها إلى الهداية وحب الدين والامتثال للقيم والفضيلة.

ولهذا كان موت العالم خسارة فادحة للأمة، ولله در القائل:

الْأَرْضُ تَحْيَا إِذَا مَا عَاشَ عَالِمُهَا مَتَى يَمُتْ عَالِمٌ مِنْهَا يَمُتْ طَرَفُ**

كَالْأَرْضِ تَحْيَا إِذَا مَا الْغَيْثُ حَلَّ بِهَا ** وَإِنْ أَبَى عَادَ فِي أَكْنَافِهَا التَّلَفُ

العلماء ليسوا كهنوتًا

منذ أيام ظهرت نغمة جديدة، كانت من قبل قد ماتت وأخفقت، حينما كان يرددها أعلام العلمانيين في بلادنا ويلوكونها بألسنتهم، ولكنها اندثرت ولم تفلح، لأننا لسنا كذلك وديننا لا يقبل بذلك.

ولعل هذه الفرية هي القول بأن (العلماء يمثلون كهنوتا في الإسلام، وأنه ليس معصومًا غير الله تعالى ونبيه ﷺ) وهي قولة حق أريد بها باطل، ومن العجب، أن العلماء حينما يقدمون على إنكار منكر أو النهي عن مخالفة شرعية، تظهر هذه الببغاوات، لتُردد هذا العبث القديم وهذا الإرهاب الفكري المفضوح.

[1] - إحياء علوم الدين

ولكن الأمر في ظني هذه الأيام، أبعد من ذلك بكثير، فهم يريدون كسر شوكة العلماء، أو إبعاد المسلم عمن يذكره بدينه وربه، فيظل تائهًا حائرًا مترددًا تتناوبه شبهات المرجفين في عقيدته، فيفقد الثقة والمعرفة حينما يهجر مصادر الهداية، أو يستبدل العلماء الربانيين الأحرار، بعلماء سوء متخاذلين منبطحين، لتخلو لهم الساحة فيهدمون ما شاؤوا من هوية هذه الأمة واعتزاز المسلم بدينه وتراثه.!

كتب الصحفي العلماني (إبراهيم عيسى) على صفحته في تويتر كلامًا يطفح بالجهل كما يظن الكثيرون، ولكن الرجل لم يكن جاهلا، وإنما هو ذكي خبيث، يسير بنفس النغمة التي تهدف إلى محو مكانه العلماء العلمية والروحية، حتى لا يلتفت إليهم أحد من الناس، فيظلون هملا في فهم دينهم، فينحدرون لأخذه من العلمانيين والشيوعيين المدلسين الملحدين، الذين يعلنون كل يوم عبثهم بالثوابت، والطعن فيم استقر لدى الأمة علميا ومذهبيا من مئات القرون.

ونحن نقرر ابتداء أن معنى أن يقوم العالم ليدافع عن دينه ضد من يريدون هدمه، بجهالات يظنها أصحابها اجتهادات وتفكيرا حرا، حينما يقوم العالم بدوره في حفظ الدين وتوضيح الاشكال، تقوم الدنيا عليه ولا تقعد، ليتهموه كما قلنا بالكهنوت، ومنح صكوك الغفران، والحكم على الناس بالجنة والنار، وهذه الاتهامات الشنيعة الفظيعة التي وللأسف، يغتر بها ضعفاء العلم والعقل والفهم ويؤمنون بزورها.

ويبقى السؤال: كيف تكون علاقتنا بربنا واتصالنا بديننا حين تخلو حياتنا من وجود العلماء؟

سؤال مهم لابد من الجواب عليه لهؤلاء الذين ناصبوا أهل العلم العداء!

ربما أحدثت النصرانية وقساوستها عقدة قهرية لدى النصارى وأذنابهم، فانقلبوا عليها وعلى سدنتها حين جعلوا من أنفسهم وساطة بين الله وعبيده، وزعموا امتلاك مفاتيح الجنة والنار، وظن الجاهلون بدينهم أن هذا العبث موجود في كل دين وينطق به كل عالم، ومنهم من يتخيل أن معنى كلمة دين.. الرجعية والتخلف والتقهقر للوراء، لأن هذا ما فعلته النصرانية بأهلها الذين لم يتقدموا إلا حينما تمردوا عليها، لكن ماذا أنت فاعل بدين يحث ليل نهار على التقدم

والتنوير والعلم والبحث والنظر؟! ويدعو قومه ليأخذوا بأسباب الحضارة الحديثة وعوامل التطور المادي؟

إن العلماء يدركون أبعاد المؤامرة على الإسلام من أعدائه، ومن ثم كانت من أهم أهداف هؤلاء الأعداء، أن يصرفوا الناس عن دوحتهم، ليظلوا غافلين عن مكر عدوهم، بعيدين عن ربهم سبحانه.!

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: "لولا العلم؛ لكان الناس كالبهائم في ظلمات الجهالة، ولولا العلم؛ لما عرفت المقاصد والوسائل، ولولا العلم؛ ما عرفت البراهين على المطالب كلها ولا الدلائل، العلم هو النور في الظلمات، وهو الدليل في المتاهات والشبهات، وهو المميز بين الحقائق، وهو الهادي لأكمل الطرائق، بالعلم يرفع الله العبد درجات، وبالجهل يهوي إلى أسفل الدركات"[1]

ويقول الرسول الكريم ﷺ: "إنَّ العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، والحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، إنَّ العلماء ورثة الأنبياء، إنَّ الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وأورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[2]

ويقول سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: (أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عباده، وهم الأنبياء والعلماء).

وقال سهل التستري – رحمه الله تعالى –: (من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء، فلينظر إلى مجالس العلماء، فاعرفوا لهم ذلك)

إن العلماء حينما ينطقون في دين الله وعنه، فإنهم لا يأتون بشريعة من خيالهم، أو أحكاما من بنات أفكارهم، وإنما كل ما عندهم من الكتاب والسنة، وما أقره الله في كتابه وسنة نبيه، أما ما يعول عليه العلمانيون من بعض الاجتهادات، فلم يقل أحد من الناس أو من العلماء أنفسهم بقدسيتها

[1] - الرياض الناضرة والحدائق النيرة الزاهرة في العقائد والفنون المتنوعة الفاخرة، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ص:٧١، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥، دار المنهاج، القاهرة.

[2] - رواه أبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣)، وصححه الألباني في "صحيح سنن ابن ماجه"

وألوهيتها، ومن قديم قال الشافعي العظيم: " قولي صواب يحتمل الخطأ، وقول المخالف خطأ يحتمل الصواب".

وقال إمام دار الهجرة: "كل يؤخذ منه ويرد إلا صاحب هذا القبر"

فقلي بالله عليك.. ماذا بعد قول الشافعي من إدراك؟ ومن زعم أن ما يأتي به العلماء من اجتهادات واجبة ومقدسة، إنما هي آراء، فما كنت لأحدها مستريحًا ومقتنعًا فلتأخذ به، وإلا رددته، كما لابد من الإشارة المهمة إلى أن الاجتهادات والفتاوى إنما هي في الفروع، وليست في الأصول التي هي في الأساس هدف العلمانيين الذين يصوبون سهامهم إليه.. أما الاعتراض على كلام العالم في شرح النصوص وبيان مرادها، فإنه في الحقيقة ليس اعتراضا على كلام العالم وإنما هو اعتراض واضح على كلام الله تعالى، ولكن لحمرة الخجل وللهروب من المحاسبة، يزعم المهاجم أنه يرد كلام العالم لا كلام الله، ولكن الحقيقة بادية والحيلة مكشوفة.

ليسوا معصومين!

أتعجب كل العجب من بعض الصوفية الذين ينزلون مشايخهم منزلة لم يرتق إليها النبيون، ويغالون في تقديسهم إلى درجة ربما تفوق تقديس النصارى للمسيح.! ربما يحبونهم ويقدرونهم، ولكن لماذا هذا الغلو العنيف، وهم بشر كالبشر، لم يكتب الله عصمتهم أو يؤكد حصانتهم.. ندرك أنهم أولياء الله وأحبابه ودعاته وأهل طاعته.. ولكن هذه العصبية لذواتهم ينكرها الشرع، ويرفضها الدين الذي يُعلن ويقرر أن الولاء للحق أولا وأخيرًا.

إنهم وللأسف يتعصبون لهم ويعلون مقامهم، حتى ولو كانوا على غير الحق والهدي القويم، بل إن من الدواهي أن يتحول الباطل إلى حق، والبدعة إلى سنة، والخرافة إلى دين، لا للجهل بها، ولكن لمجرد أنها من سلوكيات الشيخ الذي يضعه صاحبه موضع القديسين وفي رتبة توازي رتبة الوحي.! فهو في نظره حَكَمٌ على الدين والشريعة، والفرق بين الحق والباطل، وهو الدليل على الدليل، والبرهان على البرهان.!

ولا زلت أتذكر تفسير بعض المتصوفة لقصة نبي الله موسى والخضر عليهما السلام الواردة في سورة الكهف حيث قالوا فيها: بأن الولي يفوق النبي رتبة وعلمًا ومقامًا من الله حيث فاق الخضر وهو الولي على موسى الذي هو نبي.. ولما رجعت إلى التفسير وطالعت (كتاب الزهر النضر في أخبار الخضر) للحافظ بن حجر العسقلاني، وجدت أن الخضر على قول الجمهور نبي من أنبياء الله.!

ولعل هذا المرض تحديدًا، لم يختص به الصوفية وحدهم، وإن كان فيهم أكثر شيوعًا وأكثر تطرفا وجنوحا للغلو، حيث نجده كذلك في كثير من الجماعات الدينية والمذاهب والنحل، حيث يصر الأتباع على جعل الشخوص محور التقييم وفيصل التفرقة، ونواة الدعوة ومدار الحركة والتوجه، فيدخلون في عباءتهم ليحتجبوا بها عن ضوء الشمس، الذي يريهم الحقائق ويرشدهم لماهية الصواب.. ثم تتم الرواية فصولها الأثيمة، لو أنها صادفت هذه العصبية شيوخًا معجبون بأنفسهم، ولديهم بعض إمكانات وقدرات ومواهب، تشعل عصبية العامة وتزيد من قناعتهم بغيهم وغلوهم فيهم، وقد نهى رسولنا العظيم ﷺ عن هذا في قوله: (لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم) أي لا تمدحوني وتغالوا في مدحي حتى تصلوا بي إلى مراتب الألوهية، وكانت هناك امرأة تقول : وفينا نبي يعلم ما في غد.. فنهاها عن ذلك لأن علم الغيب ملك لله وحده.!

إن التعصب للأشخاص والأفراد شيء مقيت مذموم، والصواب أن نتعصب للحق وحده، الذي رفع هؤلاء وجعل لهم قيمة، حتى إذا تغير بهم الزمان، ودارت بهم دورة الآراء، فحادوا عنها وتبدلت وجهاتهم، يبقى الحق وحده قائمًا عزيزًا منتصرًا، ولعل أكثر ما يساعد على تقديس الأفراد، هو الجهل الذي يخاصم الفهم، ويقتل الوعي، ويعمي عن التقييم الصحيح للأمور، وأصحاب الدعوات يجب عليهم أن يتنبهوا إلى هذا الداء العضال الذي إن استشرى في صفوف أتباعهم، فإنه يقود للضياع والانحراف والتطرف والفتن العاصفة، التي تقضي على أي كيان مهما عظم حجمه وقدره.!

إن هوس التقديس للأشخاص حالة مرضية، وغلو تنتشي له نفوس المرضى، وهو عين الضلال، والحق دومًا هو المنهاج والميزان الذي نزن به كل شيء من الأفكار والدعوات والأفراد، وهو تماما ما عناه علي ﷺ حينما قال: اعرفوا الرجال بالحق ولا تعرفوا الحق بالرجال.!

لقد كان (حسن البنا) رحمه الله بصيرًا بهذا الداء العضال، والخطر النفسي الكبير على الدعوة والداعية، ومن ثم كانت له مواقفه الشجاعة الحازمة، التي قضت على هذا النوع من المغالاة في شخصه وإمكاناته، وعلم أصحابه أن الولاء للحق وحده لا لفرد أو إمام، ففي مؤتمر الطلاب الذي انعقد في القاهرة عام ١٩٣٨ حين وقف يخطب، فتحمس أحد مريديه من الطلاب فهتف بحياته، ومع أنه لم يردد الحاضرون هذا الهتاف، إلا أن (حسن البنا) وقف صامتًا لا يتحرك برهة، فاتجهت إليه الأنظار في تطلع، ثم بدأ حديثه في غضب وقال:

أيها الإخوان، إن اليوم الذي يهتف في دعوتنا بأشخاص لن يكون ولن يأتي أبدًا، إن دعوتنا إسلامية قامت علي عقيدة التوحيد، فلن تحيد عنها، أيها الإخوان لا تنسوا في غمرة الحماس الأصول التي آمنا وهتفنا بها (الرسول قدوتنا) (إن الله وملائكته يصلون علي النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما)

وحين جاء أحد المتكلمين في الحفل وقد كان من المتحمسين لنشر الدعوة ، قام متحدثًا إلي الناس فقال: إن مثلنا الآن من فضيلة الأستاذ المرشد وهو يشير إليه ، كمثل رسول الله ﷺ بين أصحابه، وما كاد المتحدث ينتهي من هذه العبارة حتى قفز (حسن البنا) إلي المنصة، واتجه إلي الناس قائلاً: "أيها الأخوة معذرة إذا كان الأستاذ المتحدث قد خانه التعبير، فأين نحن من رسول الله ﷺ ثم نزل إلي مكانه، ولم يستطع الأستاذ المتحدث إكمال الحديث كما بدأه."

يقول الاستاذ عباس السيسي:

(لم يكن في استطاعة البنا السكوت على هذه التصرفات، ذلك أنها كانت تمس الأصل الكبير الذي قامت عليه دعوته وجماعته، فقام ليعذر إلي الله، في التو واللحظة ويقطع مسلكًا من مسالك الانحراف في طريق الدعوة وأساسها الرباني، فهو الذي علم الإخوان أن لا يهتفوا باسم أحد

إلا الله، ولا يعظموا شخصًا ولا يحيوا إنسانًا، إنما تحيتهم لله سبحانه وتعالي، تحيتهم هتاف لله وحده..) هذا ما صنعه الأستاذ لتلاميذه، رباهم على حب الدعوة، ولم يربهم على حب أفراد الدعوة، لذا فقد استمرت دعوتهم حتى وقتنا هذا نحيا بها ونموت عليها)

ولعل بعض أتباع الاخوان في هذه الآونة الأخيرة، نسوا أو تناسوا هذا الدرس الكبير الذي أكد عليه داعيتهم دومًا وتكرارًا، فنرى كثيرًا منهم يتعصبون للأشخاص لدرجة مستفزة، حتى لو طال أن يحجز لمربيه ومعلمه مكانًا على سطح القمر أو بين النجوم لفعل، ورغم أن الأيام تصفعهم كثيرًا بمواقفها فيمن كانوا يعظمون ويعتقدون، إلا أن هذه الحالة المرضية مازالت تشوب الكثيرين منهم حينما يعاملون شيوخهم بنوع بالقدسية والتعظيم المفرط.!

والملفت في الموضوع أن أصحاب كل تيار قد لا يرون ذلك في أنفسهم، ويرونه في غيرهم من أصحاب التيارات الأخرى، ذلك لأنه يعتقد أنه ينزل شيخه في منزله الطبيعي والواقعي الذي يوائم حاله، أما غيره فيتجاوز المنطق في تكريم شيخه، وكذلك السلفي والصوفي وصاحب كل مذهب ينكر على غيره علو مشايخهم، بينما لا يرى ذلك من نفسه في شيخه ومربيه.!

أيها المحبون والمريدون لا تقدسوا مشايخكم، وادعوا لهم بالثبات على الحق الذي يكون له الولاء أولا وأخيرًا.!

الشيوخ المقدسة

قال الشيخ لتلميذه: هلم إلي يا بني واقرأ علي ما تيسر من كتاب الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية وحيد عصره وفريد نوعه ودرة زمانه، ونادرة أقرانه.

ولبى التلميذ طلب شيخه وأمسك بالفتاوى وقرأ مستهلا: سئل ابن تيمية عن رجل صانع عمل عند معلم صنعة مدة سنين، وخرج من عنده قال له حاسبني.. وهنا يشير الشيخ بيديه إلى تلميذه ويأمره أن يتوقف، ويقول له: يا ولدي إنني أقرأ الفتاوى منذ زمن كبير، ألا يوجد فيما قرأت قوله: سئل قدس الله روحه ورضي عنه؟ ألا توجد مكتوبة في هذه النسخة؟

قال التلميذ: بلى يا شيخي موجودة! فرد الشيخ متعجبًا: فلماذا أسقطتها من قراءتك؟ ألا تتعلم الأدب مع العلماء، وتعط كل ذي فضل فضله، ولكل ذي مقام مقامه؟ قل حينما تقرأ: سئل قدس الله روحه ورضي عنه، فأمثال هؤلاء العظماء يجب أن نوفيهم قدرهم ونحترم علمهم ونوقر شخوصهم.

قال التلميذ: ولكني شيخنا أكره تقديس الأشخاص، وأي محاولة تنزلهم منازل الرسل المعصومين أو الملائكة المطهرين، فهم أولا وأخيرًا بشر ككل البشر لا عصمة لديهم ولا قداسة.

قال الشيخ: لكنك يا ولدي جرفتنا إلى أمر محظور لم أقصده، ولم أرم إلى شيء منه فيما ذكرته! فقط نريد أن نتأدب مع علمائنا ونعظم مكانتهم، فالغربيون يا بني يرفعون علماءهم إلى السماء، ويجلونهم أبهى إجلال وأوفر تقدير.

قال التلميذ: يا شيخي الحبيب إن الغربيين يقدرون علماءهم ويصنعون لهم التماثيل، ويكبرون مكانتهم حقا، لكنهم لم ينزلوا أحدًا منهم منازل العصمة، والخروج عن حيز البشرية، ثم انظر يا شيخي إلى ما يفعله في شيوخهم هؤلاء الذين يسمون أنفسهم صوفية، إنهم كادوا يؤلهونهم وينعتونهم بألفاظ لا تقال إلا في حق نبي مرسل، أو ملك مقرب، إنهم يصورونهم بأنهم أعلى رتبة من الأنبياء، وقد رأيت بعض جهلتهم وهو يحتج بقصة موسى والخضر، وأن العبد الصالح كان أعلم من النبي المرسل، وانظر يا شيخي لهذه الجماعات الدينية الأخرى، التي تردد كلام شيوخها وأقاويلهم ويقدمونها على أقوال نبيا العظيم صلوات الله وسلامه عليه وأحاديثه، وكأنها أوفى وأعلى وأبين وأثمن في القدر والميزان؟!

صمت الشيخ برهة وهو يتجه بنظره إلى الأرض، ويعبث بلحيته الطويلة الكثة، ثم يلتفت إلى تلميذه ويقول له: أتفق معك يا ولدي فيما تقول، ولكن كن حذرًا أن تفعل مثل فعلهم فتكون أنت الآخر مغاليًا متشددًا، فلقد قال نبينا الكريمﷺ: " لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ لِعَالِمِنَا حَقَّهُ " يجب أن تفرق يابُني بين التقديس و التقدير، والتأليه

والاحترام، فهناك من يحترمون شيوخهم بثناء وإطراء تظنه أنت تقديسا يفوق قدر البشر، وأظن أن هذا يا ولدي من بعض غفلتك عن فضل العلماء ومكانتهم عند الله.!

إذا كنت تعلم يا بني أن الانبياء معصومون، فيجب أن تعلم أن العلماء محفوظون، فالله سبحانه عصم أنبياءه وحفظ أولياءه من الوقوع في الكبائر وصانهم عن الرذائل، وهو من اللطف الإلهي وليس من العصمة يقول تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته، ويجعل لكن نورا تمشون به، ويغفر لكم، والله غفور رحيم) [1]

أذكر مرة يا بني ونحن نطلب العلم في الأزهر، أنني قرأت كتابًا على أحد شيوخنا الأفاضل، وكان مكتوبًا تحت اسم مؤلفه (قدس الله روحه ونور ضريحه) وأخذتني وقتها نفس الحماسة التي أخذتك، واستنكرت أن تطلق هذه اللفظة على واحد من البشر، مهما كان مكانه وقدره، فنظر إلي شيخي وقال لي: هدئ من روعك وقل لي: ما معنى كلمة قدس؟ وماذا تظن من ورائها؟ فقلت ساعتها: إنها ألفاظ تدل على القداسة، والقداسة لا تكون إلا لله، فضحك شيخي وقال لي: يا فتى لقد جاء في لسان العرب: "والتَقْدِيس التَّطْهِير والتَّبْرِيك، وتَقَدَّس أَي تطهَّر، وفي القرآن: ونحن نُسَبِّحُ بحمدك ونُقَدِّس لك؛ أَي نُطهِّر أَنفسنا لك، وكذلك نفعل بمن أَطاعك نُقَدِّسه أَي نطهِّره.." وأيقنت وقتها من حديث شيخي البصير، أن الجهل بالأمور دفعني لأنكر كثيرًا من الحق، وأنه كان لابد أن أعي هذا الفرق بين التكريم والتقدير، والتقديس الذي أتوهمه.

أما أنت يا فتاي النجيب، فإني أنصحك أن تحذر شططك في التفكير، أن يدفعك لتنكر فضل الأئمة العظام الذين كان لهم قدم صدق في حفظ الدين وخدمة الشريعة.. ولعلك تعذر هؤلاء المحبين لو أنك استعمت لأحدهم وهو يقول يومًا: يعيب الناس علينا أننا نذكر إمامنا ونجله بكل حفاوة وتقدير، ولكن وجب على الناس أن يعذروننا في ذلك، فقد رأينا صحابيًا يمشي على الأرض، ووجدنا تلك الصورة التي كنا نقرأ عنها في أخلاق السلف الصالح مجسدة تمشي على الأرض.

[1] - سورة الحديد: ٢٨

تلميذي الحبيب.. هل لي أن أهمس في أذنك بشيء لا يغيب عنك؟: إن كنت تريد يا بني أن تنكر حقًا، فلا تصوب سهامك إلى هؤلاء المحبين العاشقين، قبل أن تصوبها لأولئك التائهين المغفلين الذين يلتفون حول عالم باع دينه بدنياه، فتراهم يهللون ويتصايحن ويتمسحون ويرفعونه لمراتب الطاهرين الأصفياء، وهو في حقيقته جيفة نتنة، تلهث وراء المتعة، وتخذل الحق، وتصفق للطغاة والمستبدين.!

إلى هؤلاء يا ولدي وجه سهامك.

اغتيال العلماء

إن العدوان على العلماء شيء قديم في تاريخ أمتنا.. فالسفلة الذين لا يوقرون أهل العلم ولا ينزلونهم مكانتهم كثيرون، ولا يعدم منهم زمان ولا يفتقرهم مكان.! أعرف أن الخلاف في العقيدة ربما يقود إلى التعصب والمخاصمة في الرأي، بل ربما لاغتيال المخالف.. أما أن يكون الاختلاف في الرأي والفكر والفتوى والاجتهاد، هو الدافع للمرء أن يقتل أخاه المسلم، ويجري عليه أحكام الكفار المارقين؟! فهذا شطط كبير في التفكير وجرأة طاغية في الحكم وضلال مبين في الفهم.!

أكتب هذا الكلام وأنا أقرأ قصة الأمام النسائي، أو الإمام الشهيد النسائي الذي قتله المتعصبون الأغبياء بطريقة همجية حقيرة، تدل على غلظة لا نظير لها، وحقد لا يبارى بمثله.. قتلوه لمجرد خلاف في الرأي والفكر، قتلوه لأنه قال رأيه بحرية غير مسف أو معتد.. لقد كانت قِتلةً بَشعة، أنّ لها فؤادي واعتصر لها دمعي، فمثل هذا الإمام في قامته وعلمه، لا يعامل بهذه الطريقة ولا يؤخذ بهذا العقاب، ولكن ماذا نقول في أناس فقدوا الرشد والدين والضمير والانسانية.؟!

ترك رحمه الله مصر لحقد علمائها عليه وغيرتهم منه ورحل إلى دمشق، فسأله أهلها أن يحدثهم بشيء من فضائل معاوية، فقال: أما يكفي معاوية أن يذهب رأسًا برأس، حتى يُروى له فضائل؟! فقاموا إليه فجعلوا يطعنون في خصيتيه حتى أخرج من المسجد الجامع، فسار من عندهم إلى مكة فمات ودفن بها.

وقال الامام الدارقطني: كان أفقه مشايخ مصر في عصره، وأعرفهم بالصحيح من السقيم من الآثار، وأعرفهم بالرجال، فلما بلغ هذا المبلغ حسدوه، فخرج إلى الرملة، فسئل عن فضائل معاوية فأمسك عنه، فضربوه في الجامع فقال: أخرجوني إلى مكة فأخرجوه وهو عليل، فتوفي بمكة مقتولا شهيدًا مع ما رزق من الفضائل، رزق الشهادة في آخر عمره، ومات مكة سنة ثلاث وثلاثمائة.

وقال ابن خلكان: أنه توفي في شعبان من هذه السنة، وأنه إنما صنف الخصائص في فضل علي وأهل البيت، لأنه رأى أهل دمشق حين قدمها في سنة ثنتين وثلاثمائة عندهم نفرة من علي ﷺ وسألوه عن معاوية فقال ما قال، فدققوه في خصيتيه فمات.!

وأمام هذه النصوص، أشعر بهياج نفسي وحرقة لا نظير لها، وغضب عارم على هؤلاء الهمج الرعاع.. وأسائل نفسي حائراً: أهكذا يواجه الفكر، ويرد على الرأي، ويواجه علماء الدين.. أبالضرب والإهانة والطعن والقتل والاغتيال، يكون الحكم والانتصار للنفس؟! ألا إن مجتمعًا يصل إلى هذه الدرجة، ويسمح لمثل هؤلاء الأوغاد أن يقوموا بمثل هذا الفعل المشين، لهو مجتمع رخيص فقد كثيرا من معالم الشرف المروءة.

لقد كان الإمام النسائي من بحور العلم مع الفهم والإتقان والبصر ونقد الرجال وحسن التأليف، رحل في طلب العلم إلى خراسان والحجاز ومصر والعراق والجزيرة والشام والثغور، ثم استوطن مصر ورحل الحُفَّاظ إليه، ولم يبقَ له نظير في هذا الشأن، حدَّث عنه أبو بشر الدولابي، وأبو جعفر الطحاوي، وأبو علي النيسابوري، وغيرهم كثير، وقال أبو الحسين محمد بن مظفر الحافظ: "سمعت مشايخنا بمصر يعترفون له بالتقدم والإمامة، ويصفون اجتهاده في العبادة بالليل والنهار، ومواظبته على الحج والجهاد"

وقال غيره: "كان يصوم يومًا ويفطر يومًا"

وكل هذا التفضل والمكانة والمقام، لم يكن ليشفع له عند هؤلاء الأشرار، الذين لا يرجون لله وقارًا، ولا تأخذهم رحمة بعالم أو توقير لسابقة وفضل، ويمر الزمان وتجري السنون، وبعد ٦٠٠

عام تحدث جريمة مشابهة وتطاول سافر قام بها جمع من الحقراء الجهلاء، واعتدوا على علم من أعلام المسلمين الكبار، وجرهم تعصبهم المقيت فصاروا كالحيوانات التي لا عقل لها ولا تدري ماذا تفعل أمام الإمام السيوطي، حينما تولى مشيخة مدرسة الخانقاه البيبرسية التي كانت تمتلئ برجال الصوفية، فكان له دوره في الإنكار على ما يأتونه من البدع والخرافات التي لا يعرفها الدين، حتى أنه وقف يومًا وقال لهم: (لستم بصوفية وإنما الصوفي من يتخلق بأخلاق الأولياء، كما يشهد لذلك كتاب الحلية لأبى نعيم، ورسالة القشيري، وغيرها من الكتب، ومن يأكل المعلوم من غير تخلق بأخلاقهم أكل حراما) فقاموا عليه وضربوه وأهانوه حتى كادوا أن يقتلوه، وسعوا بالوشاية عنه إلى السلطان ولكنه قال: (إن رسول الله ﷺ أخبرني أنى منصور عليهم) وقرر بعد هذه الحادثة أن يترك الخانقاه البيبرسية، ويعتزل الناس ومجتمعاتهم ويتفرغ للتأليف والعبادة، وتسببوا بفعلهم القبيح في عزلته عن الناس، وكراهيته للمجتمع وحرمان المسلمين من وجوده بينهم.

يقول الشعراني في الطبقات: (ثم إن جميع من قام على الشيخ حصل له مقت بين العباد، ومات على أسوأ حال، وقد رأيت أنا بعيني من صار ينصب على من يبيع الدجاج والمأكل، ويدخل بها بيته فلا يعود)

ونقل عن الشيخ بدر الدين بن الطباخ أنه لما قام الصوفية البيبرسية على الشيخ جلال الدين، صنف فيهم كتابًا، فسألوني أن أعارضه بكتاب، فشرعت تلك الليلة فيه، فإذا بورقة وقعت بحجري مكتوب فيها: (عبدي يا مؤمن لا تؤذ أحدًا ممن حمل علم نبي، فرجعت عن التأليف وعلمت أن الشيخ جلال الدين على حق)

في مصر وتحديدًا على أرض الإسكندرية كانت مذبحة هائلة للعلماء والأئمة حتى فرغت المدينة من العلم والعلماء، فتعطلت بها الشعائر الدينية، وسقط فيها العلم، ولم تقم بها صلاة الجمعة.

نعم كان ذلك أيام الفاطميين بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله (٤٨٧) هـ حيث قام وزيره الأفضل بدر الجمالي فأجلس أبا القاسم أحمد أصغر أولاد الخليفة المتوفى على عرش الخلافة، مما أدى إلى

غضب الابن الأكبر نزار، حيث فر إلى الإسكندرية، واتصل بواليها (أفتكين) وأقنعه أن يؤيده ويناصره ووعده بالوزارة إن هو وقف بجانبه، فاستجاب أفتيكن لدعوته واتصل بأهل الإسكندرية وأقنعهم بمبايعته ولقبه بالمصطفى لدين الله.

وأمام هذا الخروج اضطر الوزير بدر الدين أن يخرج بجيش من القاهرة إلى الإسكندرية ليقضي على هذا التمرد، وجرت بينهما حرب انتصر فيها نزار ومن معه من أهل الإسكندرية حتى قوي أمره، واستولى على بلاد الوجه البحري له.!

لكن بدرًا لم يستسلم فإذا به يجهز جيشًا جديدًا حاصر به الإسكندرية حصارًا عنيفًا، حتى ضاق الأمر بنزار وصحبه، وهرب منه بعض مناصريه، ففت ذلك في عزمه وانتهى الأمر بهزيمته ودخل جيش الجمالي الإسكندرية وقبض على نزار وأرسله إلى القاهرة ليقتل بها، ويحكي التاريخ أن الوطأة كانت شديدة على الإسكندرية، وأصابها كرب عظيم فتهدمت بيوتها ونهبت ومنعت عنها الميرة، ونصبت عليها المجانيق، ومنيت بكثير من التخريب، ولم يكتف الجمالي اللعين بهزيمة عدوه نزار، ولكنه اتجه لينتقم من أهل الإسكندرية انتقامًا شديدًا لتأييديهم لخصمه ومبايعتهم له بالخلافة، وكان ممن نالهم العقاب القاسي زمرة كبيرة من علماء المالكية، الذين وقفوا بجوار نزار وبايعوه وناصروه، فتعطلت الشعائر، وأوقفت الصلاة وضاع العلم في المدينة ولم تقم الجمعة كما ذكرنا بمساجدها، وهذا يعني أن الطاغية الجبار استأصل شأفة العلماء والأئمة، حتى أدى الامر بتعطيل الصلاة، وكان مذهب مالك هو السائد وقتها بين أهلها.

ولم يكن قيام العبيدي الفاجر بهذه المحنة للعلماء الكرام، لخلافه السياسي فقط، وإنما من المؤكد أن خلافه العقدي ساقه للولوغ في دمائهم بلا خوف ولا خشية، فالشيعة يرون في قتل أهل السنة قربة إلى الله سبحانه، الذي يتبرأ منهم ومن كثير من عقائدهم وأهوائهم.!

وهكذا العلماء دومًا على مر التاريخ، لم يكونوا بعيدين عن السياسة كما يشاع في هذا الزمان، بل كانت السياسة لا تقوم إلا بهم، ولا يستقيم أمر الحكم إلا بمشورتهم، ولا يستوي سلطان على عرشه إلا بموافقتهم، وهي حال يتنكر لها ما صار عليه العلماء في هذه الأيام، من عزلة تامة عن

السياسة وأحوال الأمة ومصالح الناس، حتى قال بعضهم: لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة.!

وما زال مسلسل الاعتداء مستمرًا من الأمس إلى اليوم بين الاغتيال الحسي والاغتيال المعنوي، حيث نشاهد هذه الأيام أحكام جائرة على علماء أفذاذ، ومفكرين عظماء، لهم بصماتهم العلمية وإبداعهم الفريد، الذي عجز الزمان أن يأتي بمثله.. نراهم اليوم يتهمون بأن أفكارهم تضر المجتمع والوطن، وإذا تتبعت فكرهم ونظرت في كتبهم وآثارهم، لا تجد شيئًا من هذا الافتراء، وسرعان ما تدرك أن ما أشيع عنهم زيف وخرافة يرددها مغرضون، في محاولة رخيصة لصرف الناس عن هؤلاء العلماء، لصلابتهم في وجه الطغاة، فلابد إذن من تشويه حياتهم ومواقفهم، وإثارة الغبار على تراثهم وأفكارهم، وهي المهمة التي يقوم الإعلام المأجور وفجرة الفضائيات، ليرسخوا هذا التشويه في عقول الناس.

اختلفوا بأدب

قال الهيثم بن جميل:

قلت لمالك بن أنس: يا أبا عبد الله الرجل يكون عالما بالسنة أيجادل عنها؟ قال: لا، ولكن يخبر بالسنة، فإن قبلت منه وإلا سكت.

وراد جدًا أن نختلف وارد جدًا أن يكون لكل منا رأي يخالف رأي الآخر واتجاهه وقناعاته، ولعل هذا من فضل الله على البشر، فلو اتحدت الأذواق لبارت السلع.. وكل إنسان له رأيه ووجهة نظره، ويرى المسألة أو القضية من زاوية مختلفة، قد لا يقع عليها عقول الآخرين.

وما دام المرء الذي يختلف معك يقدم لك حجته ومنطقه الذي يؤيد قناعاته، فهو رأي يجب أن تحترمه، وإذا كانت حججه واهية لا تنفع أن تكون براهينًا، ولا يقبلها العقل المجرب، فقد تبين لك أنه صاحب هوى، ويجب عليك أن تتركه ولا تجادله أو تناقشه، أو تعده حتى ذو رأي تختلف معه.

اختلف ما شئت أن تختلف، وعارض ما شئت أن تعارض، ولكن احذر أن تتجاوز الأدب في إظهار خلافك وحوارك مع من يخالفونك الرأي، بل احذر حتى من مجرد اتهامهم بالجهل في نفسك وازدرائهم في وجدانك لأنهم يباينونك، فهذا ليس أبدًا من الرقي، وليس من شيم الأخلاق.

إن الساحة الدعوية مملوءة بنماذج لا تقبل الحوار، وترفض كل من يخالفها في مجرد اجتهاد في مسألة فقهية، وتتهمه بالجهل وربما الزندقة والكفر، وهم فئات تعاني منها حياتنا من قديم الزمان، حينما لا يتخطى الأمر حدوده ليخرج من حيز الاتهام بالكلام، إلى الاعتداء باليد والايذاء بالعصي! ولماذا؟ لخلاف حول مسألة فقهية؟ فأي فقه وأي دين وأي خلق، أمام ضرب امرئ مسلم وترويعه والتطاول عليه وإيذائه.؟

وأي علم هذا الذي يسوق أتباعه لهذه الهمجية وهذا العدوان، الذي لا يفعله إلا البرابرة الجهلاء ضائقي الصدر عاجزي الأفق.

مما يشاع ويُعرف أن الإمام الشافعي مات بالبواسير، ولكن الحقيقة أن الإمام الكبير مات مقتولاً بيد الغدر، التي حقدت عليه نتيجة اختلاف ونقاش فقهي!

روي ياقوت الحموي الرومي، تفاصيل اغتيال الشافعي في مصر.. قال ياقوت: "إنه كان بمصر رجل من أصحاب مالك بن أنس، يقال له: فتيان، فيه حدة وطيش، وكان يناظر الشافعي كثيرًا، ويجتمع الناس عليهما، فتناظرا يومًا في مسألة بيع الحر -وهو العبد المرهون إذا أعتقه الراهن ولا مال له غيره- فأجاب الشافعي بجواز بيعه على أحد أقواله، ومنع فتيان منه، فظهر عليه الشافعي في الحجاج، فضاق فتيان بذلك ذرعًا، فشتم الشافعي شتمًا قبيحًا، فلم يرد عليه الشافعي حرفًا، ومضى في كلامه في المسألة، فرفع ذلك رافع إلى الوالي السري بن الحكم، فدعا الشافعي وسأله عن ذلك وعزم عليه، فأخبره بما جرى، وشهد الشهود على فتيان بذلك.

فقال السري بن الحكم: "لو شهد آخر مثل الشافعي على فتيان لضربت عنقه، وأمر فتيان فضرب بالسياط، وطيف به على جمل، وبين يديه مناد ينادي، هذا جزاء من سب آل رسول الله ﷺ ثم إن

قومًا تعصبوا لفتيان من سفهاء الناس، وقصدوا حلقة الشافعي، حتى خلت من أصحابه وبقي وحده، فهجموا عليه وضربوه، فحمل إلى منزله، فلم يزل فيه عليلا حتى مات".

ونفس القصة أوردها ابن حجر في "توالي التأسيس" وقال نصًا: "قلت: قد اشتهر أن سبب موت الشافعي: أن فتيان بن أبي السمح المالكي المصري، وقعت بينه وبين الشافعي مناظرة، فبدرت من فتيان بادرة، فرفعت إلى أمير مصر فطلبه وعزره، فحقد ذلك فلقي الشافعي ليلا فضربه بمفتاح حديد فشجه، فتمرض الشافعي منها إلى أن مات "

حتى أن أحدهم سجل هذه الواقعة شعرا فقال:

و لما أتى مصر انبرى بالأذى له ** أناس طووا كشحاً على بغضه طيا

أتى ناقداً ما حصلوه وهادماً ** لما أصلوا إذ كان بنيانهم وهيا

فدسوا عليه عندما انفردوا به ** شقياً لهم شل الإله له اليديا

فشق بمفتاح الحديد جبينه ** فراح قتيلاً لا بواك و لا نعيا

وهكذا يهان العلماء لدرجة الاغتيال والقتل غيلة وغدرا.

هذا عن المالكية وما فعلوه في الشافعي، وننظر هنا لفعل الحنابلة في الطبري، وما أدراك ما الحنابلة؟!

جاء في كتب التراجم أن الطبري رحمه الله، لما قدم بغداد من طبرستان، واستقر في بغداد وظهر علمه وفضله، تعصب عليه جماعة منهم أبو عبد الله الجصاص، وجعفر بن عرفة والبياضي، وأوغر الحسد صدورهم عليه، كما قصده الحنابلة فسألوه عن رأيه في الإمام أحمد بن حنبل وآرائه الفقهية، ورأيه في حديث الجلوس على العرش، وخاصة أن الطبري لم يذكر الإمام أحمد في كتابه اختلاف الفقهاء، فأجابهم الطبري بقوله: أما أحمد بن حنبل فلا يُعد خلافه، فقالوا له: إن العلماء ذكروه في الاختلاف، فقال: ما رأيت روي عنه، ولا رأيت له أصحابًا يعول عليهم أي في الفقه، وأنه كان إمام الأئمة في الحديث، ولم ينشئ مذهبا فقهيًا، فلما سمع ذلك الحنابلة وأصحاب الحديث آذوه وضايقوه، ورموه بالحجارة على بابه حتى تدخلت الشرط ومنعت ذلك.

ورغم تأليفه عن فضل أحمد ومحاولة إرضاء هؤلاء وشرح وجهة نظره، فقد نقل أن بعضهم كانوا يحقدون عليه حتى أن منهم من أساء التصرف عند دفنه.[1]

أزمة التربية

تربينا في صغرنا على حب العلم واحترام أهله، وتقدير العلماء وإعظام مكانتهم، وربطنا بينهم وبين الإيمان بالله، فهم من يدلون على الله ويعرفون الناس بسبيله وهديه، ومن هنا كان التقدير والاحترام، لزام عملية تربوية صِيغت بها عقولنا وقرائحنا.

تعلمت تقبيل يد العلماء، وأن هذا من تمام الاحترام للعلم وأهله، وكنت حينما أجلس لعالم، أشعر أنني في لقاء من لقاءات الجنة، وأتلمس النور في وجهه وعلائم الإيمان.

كان هذا التقدير ينبع من الحب للعلم، والولع بأسبابه، ولم يكن ينصرف أبدًا إلى ما يظنه البعض، أو يحاول تأويله جهلا بأنه تقديس مُسف، أو تأليه للبشر من دون الله، أو نسبة العصمة لرجال ليسوا بملائكة ولا أنبياء.!

وهو فخ كبير، يقع فيه كثير ممن لا فقه لهم ولا علم، فقد رآني أحدهم يومًا أقبل يد عالم، فهاج وماج ولم يتمالك نفسه، وحاول أن يصورني بأنني من مؤلهي البشر.

ومن هنا كان التهجم على العلماء الربانيين المخلصين، خصلة دنيئة، وجريمة في نظري لا يمكن أبدًا أن أتخيل نفسي من مرتكبيها، بل هو ما يجعلني اليوم أقر بأن من تسول لهم أنفسهم أن يتجنوا على عالم، أو يسيئوا إليه وإلى سمعته، إنما هم في الحقيقة لا يستندون إلى عقل حر، وفهم مستنير، ولكنهم فقدوا التربية والتهذيب والاعتزاز بالروح الإيمانية، التي لم يتلقوها في بيوتهم وبيئاتهم، ولم يروا عليها آباءهم وأمهاتهم، ومن هنا سهلت على ألسنتهم وأقوالهم، تجريح هذه الشريحة الربانية التي عظمها الله تعالى، وأمرنا بتقديرها رسولنا الكريم ﷺ.

وهؤلاء الذين حرموا من هذه التربية، هم أول فريسة يستهدفها العلمانيون والملحدون، ويقعون في حبائلهم، فيعجبهم منهم تجريح العلماء والحط من قدرهم، وتشويه صورتهم، بحجة أنهم

[1] - راجع معجم الأدباء وطبقات الشافعية والبداية والنهاية

بشر، وأن تعظيمهم وتقديسهم بل مجرد احترامهم، سبة للعقل البشري ومذمة لكرامة الإنسان الحر الواعي.!

إن تقديري للعلماء قيمة وفضيلة تلقيناها من آبائنا ومعلمينا، فمنذ وعيت للحياة، وأنا أرى والدي منصت للرائي (التلفزيون) باهتمام، ويستمتع بمشاهدة الشيخ الشعراوي، وينصت إليه بكل جوارحه، ومازالت ترن في أذني كلمة: يا سلام، وكلمة: الله عليك، التي كان ينطق بها والدي، كلما سمع معنى جديدًا من معاني الشعراوي وخواطره في تفسير القرآن، لم أكن أفهم أي شيء مما يقوله الشعراوي وأنا صغير، إلا أنني كنت أفهم جيدًا وأعي أنه قيمة كبيرة، وآية عظيمة. وهي التربية التي انعكست لا على تقدير من أحبهم فقط من العلماء، وإنما حتى مع من أختلف معهم من أهل العلم، فليس معنى أني حنفي المذهب، أن أزدري شافعيًا أو مالكيًا، فإذا كان حب العلماء من معالم التربية، فاستيعاب الخلاف واحترام الآخر من معالم الفهم والوعي الرزين.

وأتعجب اليوم من شباب يتطاولون على أهل العلم بكل جرأة ووقاحة، ولو نظرنا لأحدهم لما وجدناه يساوي هؤلاء في طاعتهم ومعرفتهم بالله وخدمتهم لدينه، ولكنها السفاهة، وقلة التقدير، وضعف التربية التي انعكست اليوم على سلوكهم، فخرّجت قبائح النفس وعفن الضمائر.

قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾[1]

وقال ﷺ: (إن العلماءَ ورثةُ الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورَّثوا العلم..)[2]

فقهاء يخونون الأمة

هناك تيارات دينية تعشق الخلاف بين العلماء، وتغليب هذا الرأي على ذاك، وتتعصب تعصبا مقيتًا لقول عالم على غيره، وذم مخالفيه وربما تفسيقهم وتكفيرهم واتهامهم بالبدعة والفجور.

وهم بهذا الطريق يحيون ذكريات أيام أليمة، عانت فيها حقبة من تاريخ أمتنا خصومات حمقاء، أضرت بالمجتمع المسلم ومزقت صفوفه، وأبادت وحدته، وخلخلت إيمانه.

---

[1] - المجادلة: ١١

[2] - رواه أبو داود والترمذي وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود»

أما التيار الصوفي.. فلك أن تبتعد عن مسألة التوسل بالأولياء والتمسح بالضريح، وتفعل بعدها ما تشاء وتتبنى ما تشاء، من مسائل الفقه واجتهاداته، فلن تجد منهم معترض أو مخالف، أو أي مواجهة مضادة.

ونحن في القرن الحادي والعشرين والذي مني فيه الإسلام بهزائم كبيرة، وأعني بالإسلام أي دِوله وأتباعه، الذين يمثلونه ويعتنقونه، لا يسعنا في هذا الوقت وهذا الزمان، إلا أن ننعت هؤلاء المتعصبون للمذهب الفقهية، والمتشنجون للأحكام الدينية، والمتقاتلون على تفسيرها وتأويلها، والمؤججون لنار خلافها، إلا بأنهم ضعاف الإيمان وجهلة وخونة للأمة والعقيدة والدعوة، فلا يليق أبدا أن نلج هذه المواطن، ونمارس هذه الموروثات التي عفا عليها الزمن وولى عهدها، وأمتنا اليوم في أمس الحاجة لوحدة تجمع أجزاءها المتشتتة، ورباط يربط بين أبنائها وأجناسها ومدارسها ودولها.!

حقا لقد كانت مهزلة، تروج لها الأنظمة المستبدة وتعلم يقينا أن من مصلحتها أن تحيي هذه الصراعات والمنافسات والمقاتلات، حتى تشغل هذا الفريق عن السياسة وأمور الحكم.. فالحاكمون الطغاة لا يسرهم أبدا أن يقف لهم عالم ينهاهم ويأمرهم ويهيج عليهم الجماهير في كل كبيرة وصغيرة، ومن الرائع لهم أن تغرق هذه الفرق الدينية في الصراع حول الاحكام الفقهية والفروع الثانوية.. أما العلماء والدعاة الذين يتنبهون لهذا الشَرك، فهم أعداء للسلطة لوعيهم بتدبيرها وخفايا مؤامراتها.

أقع في حيرة كبيرة أمام ما أقرأ من بعض النصوص، ولا أعرف حيالها هل أتعجب وأندهش، أم أضحك كثيرا لطرافتها وغرابتها أو لغبائها.!

قرأت أن علماء الشافعية حرّموا زواج الشافعي من حنفية، إلا بالقياس إلى الكتابية، في حين حرّم الأحناف الصلاة خلف الشافعية، لأن الإمام الشافعي أباح للرجل الزواج من ابنته التي جاء بها من الزنا، وغير ذلك؛ في حين يقول الشيخ محمد بن موسى الحنفي، قاضي دمشق (توفي ٥٠٦هـ) "لو كان لي من الأمر شيء لأخذت على الشافعية الجزية".

وقال نحو ذلك الشيخ أبو حامد أو ابو المظفر الطوسي الشافعي (ت٥٦٨هـ) بأن يضع الجزية على الحنابلة.

يقول ابن بطوطة: أنه حين دخوله الأناضول، وأراد أن يصلي في إحدى المساجد لم يكد يكبر تكبيرة الإحرام ويشرع في قراءة الفاتحة حتى أحس باللكمات تتساقط عليه من هنا وهناك، فصرخ: يا قوم ماذا جنيت؟ فقالوا أنت شيعي ترسل يديك في الصلاة! فقال بل أنا سني مالكي، وفي مذهبنا إرسال اليدين، فقالوا أنت كاذب! فو الله لم يصدقوني حتى ذبحوا لي أرنبا وأطعموني إياه فأكلته، وكنت جائعاً (باعتبار أن مذهب الشيعة يحرم أكل الأرانب فأرادوا التأكد من عدم تشيعه!).

ويروي الشيخ محمد الغزالي في أحد كتبه: أنه عاش الزمن الذي كان يدخل المسجد تقام فيه أربع جماعات منفصلة للصلاة حسب المذاهب الأربعة.

وكان من أول الحوادث ما حدث سنة ٣٩٣ هجرية بين الشافعية والحنفية ببغداد، وكان سببها أن شيخ الشافعية أبا حامد الإسفراييني (ت٤٠٦ه) الذي استطاع أن يؤثر في الخليفة العباسي القادر بالله، ويقنعه بتحويل القضاء من الحنفية إلى الشافعية، فلما فعل ذلك احتج الحنفية ودخلوا في مصادمات مع الشافعية.

والفتنة الثانية حدثت بمدينة مرو ببلاد خُراسان بين الشافعية والحنفية، عندما غيّر الفقيه منصور بن محمد السمعاني المروزي (ت٤٨٩ه) مذهبه، فانتقل من المذهب الحنفي الذي اعتنقه طوال ثلاثين سنة إلى الشافعي، وأعلن ذلك بدار الإمارة بمدينة مرو، بحضور أئمة الحنفية والشافعية، فاضطرب البلد لذلك، واضطربت البلد بين الشافعية والحنفية، ودخلوا في قتال شديد، وعمت الفتنة المنطقة كلها، ما اضطر السمعاني للخروج من مدينة مرو.

وكانت ثالثة الفتن بين الحنابلة والشافعية ببغداد سنة ٥٧٣ هجرية، وذلك أنه عندما تُوفي خطيب جامع المنصور محمد بن عبد الله الشافعي سنة ٥٣٧ هجرية، ومنع الحنابلة من دفنه بمقبرة الإمام أحمد بن حنبل؛ لأنه شافعي وليس حنبليا، فحدثت فتنة بين اتباع المذهبين تدخل على إثرها

الخليفة العباسي المقتفي وأوقفها، وأفشل محاولة الحنابلة منع دفن المتوفى بمقبرتهم، وأمر بدفنه فيها، فتم ذلك.

الفتنة الرابعة وكانت كبيرة حدثت بأصفهان -ببلاد فارس- بين فقهاء أصحاب المذاهب سنة ٥٦٠ هجرية، وتقدمها عبد اللطيف الخُجنّدي الشافعي، ضد مخالفيه من المذاهب الأخرى، واستمر القتال بين الفريقين لمدة ٨ أيام، قُتل منهم خلق كثير، وأُحرقت وخُرّبت منازل كثيرة.

ومن الأحداث ما يذكر ابن رجب الحنبلي في ذيل طبقات الحنابلة في ترجمة عبد الخالق بن عيسى المعروف بالشريف أبو جعفر العباسي، فتنة ابن القشيري ومضمون ذلك: أن أبا نصر بن القشيري (إمام شافعي اشعري) ورد بغداد سنة ٤٦٩هـ وجلس في النظامية (أحد المدارس) وأخذ يذم الحنابلة، وينسبهم إلى التجسيم، وكان المتعصب له أبو سعد الصوفي، ومال إلى نصره أبو إسحاق الشيرازي، وكتب إلى نظام الملك الوزير السلجوقي يشكو الحنابلة، ويسأله المعونة، فاتفق جماعة من أتباعه على الهجوم على الشريف أبي جعفر في مسجده، والإيقاع به، فرتب الشريف جماعة أعدهم لرد خصومه إن وقعت، فلما وصل أولئك إلى باب المسجد رماهم هؤلاء بالآجر، فوقعت الفتنة، وقتل من أولئك رجل من العامة، وجرح آخرون.

وبعد الاقتتال العنيف بين الحنابلة والشافعية في بغداد، حاول الوزير نظام الملك التوصل إلى حل للمشكلة، فجمع بين ابن القشيري (شيخ الشافعية) وأصحابه وبين أبي جعفر الشريف (شيخ الحنابلة) في مجلسه، وطلب منهما أن يتصالحا، فقال له القشيري: (أي صلح يكون بيننا؟ إنما الصلح بين مختصمين على ولاية، أو دَين، أو تنازع في ملك، فأما هؤلاء القوم: فيزعمون إنا كفار، ونحن نزعم أن من لا يعتقد ما نعتقده كان كافرا، فأي صلح يكون بيننا).

وذكر ابن كثير في البداية والنهاية: أن هذه الفتنة أدت إلى حبس الشريف أبي جعفر العباسي في دار الخلافة، وإخراج ابن القشيري من بغداد.

حالهم كما قال الغزالي علامة عصرنا كحال طبيب استدعي لعلاج مريض في العناية على وشك الموت فما استرعى انتباه الطبيب الا أن المريض (شرابه مخروم) و شرع يصلح هذا العيب الخطير (في نظره) غافلا عن أن المريض يحتضر و سيكون (ذنبه في رقبته)

ويعجبنى من قال ما معناه أن الفقيه الذي يعلم الناس نواقض الوضوء في بلد تنتهك فيه حرمة الدماء خائن لله و رسوله، أما أنا فلا أعرف كيف سيلقى الله تعالى أمثال هؤلاء الفقهاء الذين كفروا المسلمين، وأحلوا دماءهم واستباحوا أعراضهم، لخلاف فقهي؟!

كيف سيقفون أمام الله؟

وبأي حجة سيجيبون؟

عار لا ينمحي

سيظل التاريخ يشهد ويُقر أن أمتنا من أكثر الأمم التي تهين عظماءها وتظلم علماءها، سيظل التاريخ يحمل لنا هذه الشهادة التي تمثل عارًا لا نعرف كيف نغسله عن أنفسنا؟ وليته كان خلقًا قديما وانتهى، إلا أنه مازال مسلسلا مستمرا في حياتنا وأيامنا لا ينتهي، وعادة سوء يتوارثها بعض الجهلاء جيلا بعد جيل..

انظر في هذه الأيام كيف يتطاول جاهل أحمق على راية الدين وبطله الخالد (صلاح الدين الأيوبي) ويشيع عنه إفكًا وزورًا لم تكن تعرفه حياته أو يقر به تاريخه وجهاده، اللهم إلا ما جاءت به الشيعة عليه من افتراءات لأنه هدم ملكهم ودولتهم في مصر؟!

لعلنا نصارح أنفسنا حينما نقول: إن الإساءة للعلماء والتطاول عليهم والطعن في سمعتهم والتشهير بمقامهم والحط من قدرهم، سمة اتسمت بها أمتنا.! فلا تعرف أمة أهين فيهم علماءهم كما عرفت أمتنا، فكل عالم يحاول الصدح بالحق وقول الصدق، يجد له من السفهاء والسفلة من يعترض طريقه، ويهين شخصه، ويلصق به من التهم والبلايا مالا طاقة له به.!

ولك أن تتعجب حينما تجد أن هذا التطاول لا ينال العلماء أو الدعاة العاديين وحدهم، وإنما يتخطى لما هو أبعد من هذا.. حينما يصدر من أصحابه ضد أعلام الأمة الكبار، وعلمائها الثقات الربانيين الميامين من السلف والخلف، وفي كل عصر ومصر.!

وهؤلاء الذين يتطاولون على العلماء أصناف وأغراض، فمنهم جهلاء متعصبون للرأي والمذهب، فلا يختلفون بأدب أو يحاورون بخلق، وإنما يسارعون للخطأ والظُنة والإساءة السافرة لمن يخالفهم من العلماء، الذين لا يبلغون حذو نعل من نعالهم.

والصنف الثاني هم أجراء أو عملاء السلطة وخدم الحكام، حين يسلطونهم على العلماء الربانيين الذين يقولون الحق، ويقفون في وجه الأمراء الطغاة، فلا يجدون طريقا للكيد لهم، إلا كلابهم الضالة الآثمة، التي تولغ في وقاحتها لتصيب هؤلاء الربانيين.

وانظر في تاريخنا ماذا حدث حينما قام علم كبير من أعلام أهل السنة وهو الطبري رحمه الله، صاحب المصنفات الضخمة الكبيرة، لمجرد أنه كتب في فضائل علي أمير المؤمنين، وأثبت الأسانيد والروايات لحديث غدير خم والوارد فيه (ثم أخذ ﷺ بيد عليٍ فرفعها حتى رؤيَ بياض آباطهما وعرفه القوم أجمعون، فقال: أيها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إن الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فعلي مولاه، يقولها ثلاث مرات) لمجرد فعله هذا، اتهمه الحاقدون المفرطون بتهمة التشيع، وسارع بعض مخالفيه للرد عليه ومناظرته، ومنهم من أولغ في رميه بالرفض والعظائم واتهامه بالوضع، وهي تهم قاسية في حق إمام جليل مثل الطبري.

وتهمة التشيع هنا لا تعقل لمجرد أنه كتب في حب علي ﷺ وأهل البيت، فهذا هو عقيدة أهل السنة وجزء من الدين، فكيف كانت هذه التهم ولم يثبت عليه شيء من المغالاة في حبهم كما تفعل الشيعة، أو سب الصحابة والانكار عليهم؟ كيف يُتهم بهذا وهو يعظم الشيخين أبي بكر وعمر ويُكبر مقامهما؟ وقد يعجب المرأ مما كتب الامام الذهبي في قوله: (فيه تشيع يسير) وقوله: (اتهم بتشيع يسير) وهو الأمر الذي يحتاج إلى تفسير وشرح وبيان عن معنى كلمة التشيع اليسير.؟!

وهل هناك تشيع يسير وتشيع كبير؟!

وفي تراث الرجل.. نجده يكفر من يسب الصحابة، ويحرم نكاح المتعة، ويقول بغسل الرجلين في الوضوء، ويخالف الشيعة والمعتزلة في رؤية الله تعالى يوم القيامة، ونسبة الأعمال إلى أصحابها دون تدخل القدرة الإلهية فيها.. وكل هذا مما يدل على سنية الإمام العظيم، ورد هذا الهراء المجهول، كما أننا لو رجعنا إلى تراث الرجل حتى نحكم عليه، لوجدنا الالتزام الكامل والتام بعقيدة أهل السنة والجماعة، ورحم الله الذهبي حينما ذكر عنه قوله: إن من ينكر إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، إنه يقتل، وأنكر مجرد وصفه بالمبتدع.. فكيف تصدر مثل هذه التهمة على هذا الإمام الكبير، اللهم إلا حرفية التطاول على الأعلام، والتي لأمتنا نصيب كبير من فصولها.

لا تظلموا أعلامكم

إن المرء ليعجب كثيرًا من هؤلاء الناس الذين يأخذون بالشبهة، ويبادرون بالتهمة دون تبين، ألا إنهم بهذا السلوك قد يظلمون الناس، ويفترون عليهم، ويحرضون العامة على ذمهم، ويلصقون بهم ما ليس فيهم.

وإذا سألت أحدهم عمن يتهمه ويسبه ويدعو عليه: هل تعرفه؟ فيجيبك بقوله: لا ولكني سمعت عنه!

وهنا يقع الظلم الكبير، حينما نحكم على الناس والأشخاص دون تبين ومعرفة فنظلمهم كثيرًا. ولعلها قضية محورية في حياة الناس، وأمرًا من الأمور التي تفسد بسببها علائقهم، ومن هنا كان حفيًا بالقرآن الكريم أن يلمسها ويعرض لأمرها، وينوه بخطرها في دنيا المؤمنين، حيث قال تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ"[1]

والمعنى كما قيل: " يا من اتصفتم بالإيمان، وصدقتم بكتاب الله، وآمنتم برسوله، لا تسمعوا لكل خبر، ولا تصدقوا كل إنسان، بل تحقَّقوا وتثبَّتوا من الأمر، قبل أن تصيبوا إخوة لكم مؤمنين،

[1] - الحجرات :٦

بسبب خبر لم تتحققوا من صحته، وكلام لما تتأكدوا من صدقه، فتندموا على ما فرَط منكم، ولكن لا ينفعكم حينئذٍ الندم."[1]

وقد يحدث هذا الأمر بين العامة والغوغاء، وكثير من الذين يفتقدون الحكمة والروية والفهم والوعي والرشد، لكن الطامة حينما يقع بين أهل العلم والفضل والبيان للناس، ذلك أن تأثيرهم وترويجهم للشبهة والتهمة، يكون أكثر من غيرهم، فترى واحدًا من هؤلاء لم يقرأ سطرًا واحدا لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ولم يعرف أي شيء من تفاصيل حياتهما، ثم يبادر للطعن فيهما وهم أهل التقوى وأئمة الدين، ووصفهما بعداء الإسلام وموالاة خصومة، والانتساب للمنظمات التي تكيد للدين، حتى أنك تضحك وتضحك، وتغط في موجة كبيرة من الحيرة الممزوجة بالدموع، من فرط هذا الجهل البين والظلم العنيف، لشخصين أبيا أن يحييا في هذه الدنيا إلا لله تعالى ونصرة دينه وإسعاد خلقه.

كان الشيخ عبد الله القرعاوي من أئمة الحجاز يروض تلاميذه دومًا على الحلم والحكمة والتبين والتثبت حتى يصححوا خرافات الناس، ولا يتهمون أهل الحق في دينهم، فكان كثيرًا ما يروي عليهم نبأ أحد شيوخه الذي تلقى عليه العلم في إحدى مدارس الهند، فلا يمر به ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب، إلا صب عليه سِياط غضبه، ثم يختم بالتضرع إلى الله تعالى أن ينقذ الإسلام والمسلمين من شر دعوته إلى يوم الدين، حتى ليكاد يجعل من ذلك ورده الملزوم في أعقاب كل درس!

يقول الشيخ: ولم يكن معقولا أن أواجه الرجل بأي اعتراض على فكره يمتلئ بها صدره وصدور سامعيه إيمانا بها، لذلك عمدت إلى حيلة، فأخذت كتاب التوحيد تأليف الإمام محمد بن عبد الوهاب، ونزعت عنه غلافه الذي يحمل اسمه، ثم تركته على منضدة الشيخ دون أن يعلم مصدره.. وشاء الله تعالى أن يقرأ الشيخ ذلك الكتاب ويستوعبه بدقة، فراح يبدي إعجابه

[1] - روائع البيان للصابوني

ويسأل عن مؤلفه العظيم، حينئذ أعلنت له الواقع، فما كان من الرجل إلا أن قال: لقد ظلمنا هذا المصلح العظيم كثيرًا، ولا نجد كفارة لما أسلفنا إلا أن ندعو له بمقدار ما دعونا عليه!

وهي نفس مأساة الكثيرين اليوم وهم يذمون الوهابية ويقرنونها بالإرهاب والتشدد والتطرف، ولم يقرؤوا شيئا عنها وعن صاحبها ودعوتها وغايتها.

لكن ليست المشكلة فيمن يتهمون بدون علم فقط، ولكن المأساة فيمن يتهمون بغير فهم وعلم ودراية وسؤال.!

منذ أيام وجدت أحدهم يتهمني على الملأ بأنني أشوه صورة مفكري الإسلام علمائه المصلحين، وأنا الذي قضيت ما سلف من حياتي أقبل التراب الذي يطؤونه بأقدامهم، ويقول لي: ما رأيك في أنور الجندي؟

فقلت له وهل مثلي يُسأل عن هذه القامة الكبيرة التي كان لها عظيم بلاء في حماية الإسلام والدفاع عن تراث الأمة، فقال: لقد نشرت مقالا لك بعنوان (الأذكياء المخدوعون) في تاريخ كذا، اتهمت فيه الأستاذ الجندي بأنه كتب كتابين عن عبد الناصر مدحه فيهما، وهذا تلبيس وكذب على شخصية الجندي، ووصفه بأنه منافق معوان للظالمين.!

وتعجبت من هذا الكلام وهذا الفهم وهذا الإصرار الحاقد بأنني أشوه حقيقة علم كبير من أعلام الأمة.

ثم تحداني على الملأ، وطالبني بإثبات ما ذكرت، كان هجوم الفتى ولغته في المباغتة تثير العجب من هذه النفسية التي تضج بالكره لي، والسخط علي، والحقد على شخصي، فقلت له: اصبر حتى آتيك بالدليل لكني أخشى أن يضحك الناس عليك، فقد ذكر الأستاذ الجندي أنه كان كأناس كثيرين متنبئا بالخير في الثورة ورجالها، وكان يطلق عليها الحركة المباركة، ويحسن الظن بجمال عبد الناصر ويرى فيه أمل هذا الوطن وبداية تحضره ونهوضه، بل كان مفتونًا به كغيره من المصريين، ودفعه هذا الإعجاب أن كتب عنه أكثر من كتاب مثل: هذا هو جمال من بني مر إلى الجمهورية العربية المتحدة، وطبعته دار المعارف عام ١٩٦٠م، وكتاب جمال عبد الناصر وكفاح

الشعب وطبع عام ١٩٥٦م ، وكان قد ألف كتابا ثالثًا بعنوان الشروق الناصري، لكنه طواه ولم يعد طبعه بعدما تكشفت حقيقة الطغيان الناصري وشخصية الزعيم الدكتاتور المستبد الذي قاد الوطن للهزيمة والعار.

لم يستوعب الفتى هذا الكلام، ولم يستوعب أن الأستاذ الجندي قد خُدع أو ظن شيئًا وأفاق منه، وبعد أن أتيته بالدليل والمصدر من كتاب الزاهد للقاعود، ومصابيح على الطريق للجندي، قال متواريا: إذن دعواي صحيحة فلماذا لم تذكر المصدر؟ تعلم مرة ثانية أن تذكر مصدر المعلومة.!

فقلت له: أي مصدر وأنا لم أكتب مقالا علميًا أو بحثا أكاديميا، وإنما هي معلومات من قراءاتي أناقش فيها قرائي؟

إن شوقي رحمه الله مدح الطاغية كمال أتاتورك وصوره للمسلمين بأنه شبيه خالد ابن الوليد في قوله الشهير المحفوظ:

الله أكبرُ كَمْ فِي الفتحِ مِن عَجَبٍ ** **يا خَالدَ التُّرْكِ جَدد خَالدَ الْعَرَبِ**

ويقصد بخالد الترك مصطفى كمال أتاتورك وخالد العرب خالد بن الوليد، لكن شوقي عندما فوجئ بأن أتاتورك أسقط دولة الخلافة سنة ١٩٢٣ وكانت من الأشياء التي كان يؤمن بها شوقي إيمانا كبيرا ذكر بأن العالم الإسلامي ما كاد يفرح بانتصار الأتراك على أعدائهم في ميدان الحرب والسياسة إلا وقد أتى أتاتورك يلغي الخلافة فنظم شوقي قصيدة يرثي فيها الخلافة وينبه أمة الإسلام لأن تسدي له النصح لعله يبني ما هدم، وينصف ما ظلم ومن هذه القصيدة قوله:

بَكَت الصلاةُ وتلكَ فِتْنَةُ عَابِثٍ ** بالشَّرعِ عِرْبِيد القَضَاء وقاح

أفتى خُزَعْبَلَةَ، وقال ضَلَالة وأتى بُكُفْرٍ في البلاد بَرَاحِ**

ثم يقول شوقي بأنه ما تحول عن موقفه من مادح لأتاتورك إلى قادح له إلا عندما نال من صرح الخلافة الذي هو خط أحمر لا ينبغي أن يتجاوز فيقول:

أستغفرُ الأخلاقَ لستُ بِجَاحِدٍ من كنت أدفع دونه وأُلَاحِي**

مَالي أُطَوِّقُه المَلَامَ وَطَالمَا قَلَّدْتُه المُأْثُورَ مِنْ أَمْدَاحِي**

ثُمَّ يُنَادِي المسلمين بأن يسدوا له النصح ويشبهه بحصان جامح فيقول:

أَدُّوا إِلَى الْغَازِي النَّصِيحَة يَنْتَصِحْ ** **إِنَّ الْجَوَادَ يَثُوبُ بَعْدَ جِمَاحِ**

ولما سقط السلطان عبد الحميد قدم شوقي مفارقة تصويرية بين ماض كانت الأوانس فيه ناعمة في القصور وفي الخدور، وواقع بدت الأوانس بائسات في الدواهيَّ والقبور، فيقول:

ذَهَبَ الجميعُ فَلا القصورُ تَرى وَلا أَهْلَ القُصُور

ويلقي باللائمة على السلطان عبد الحميد بأنه رَكن إلى الدعة، ولم يستشر أحدا رغم كثرة المستشارين، فيقول:

عَبْدَ الْحَميدِ حسابُ مِثْلِك في يدِ الملك الغفورِ

سُدْتَ الثلاثين الطوالَ ولسنَّ بِالْحكمِ الْقَصيرِ

تَنْهَى وتأمرُ ما بَدَا لك في الكبير وفي الصغيرِ

لا تستشيرُ وفي الحِمى عددُ الكواكبِ من مُشيرِ

ويتحسر شوقي في قصيدة أخرى على الخلافة تحسرا يوحي بهول الأزمة ويصور وقع المصيبة فيقول في أكثر من قصيدة فيقول:

قل للخلافةِ قولَ بَاكٍ شَمْسَها...بالأمس لما آذنت بدلوكِ

يا جَذْوَةَ التوحيدِ هل لك مطفئٌ...والله جلَّ جَلَالُه مُذْكِيكِ[1]

قد نختلف ونظن الظنون ونرى ما ننكره.. ولكن علينا التبين والتثبت ولا ندرج من أنكرنا عليهم سراعًا إلى ساحة العداء.. فذلك من سوء النفس وفساد الطوية.

سلفيون يفتقدون الأدب

في ذكرى رحيل الشيخ (محمد الغزالي) رحمه الله كان لابد ومن الضروري أن نقدم هذا الخطاب، حتى نُعلم أشبال الصحوة وفتيانهم معنى الأدب، ونؤكد عليهم أن يلزموا الإجلال والاحترام والوقار، وهم يتحدثون عن العلماء العاملين والأعلام الربانيين من رموز هذه الأمة.

[1] - من مقال عندما ينخدع الشعراء بألاعيب السياسة للدكتور نعيم عبد الغني

لقد كان الشيخ الغزالي رحمه الله من أكثر العلماء الذين نالتهم سهام الفتيان الطائشة، وأكثر الشيوخ الذين تطاول عليهم الأقزام الأغرار من غلمان التيارات السلفية الهائجة، وقد تعجب من شيخ كهذا، وقد قضى دهره في نصرة الدين ورفع لوائه ومكافحة العلمانيين والملاحدة والشيوعيين، ودحر أطماع الطغاة وشهوات الظالمين، ثم يأتي غلام لم يقرأ كتابًا أو كتابين، وكل حصيلته من الدين لحية أطالها أو ثوبًا قصره، وسواكًا ينحت به أسنانه، ثم يقول لك بغطرسة وغباء وحمق: (الغزالي المبتدع الضال)

ويا لها من قولة فاجرة جائرة جاهلة، لفتية عاقون لم يتجشم أحدهم عناء القراءة يومًا لكتاب من كتب هذا العالم المجاهد، ليعرف فكره أو يقف على جهاده.

ربما لو كان أحدهم عالما لشفع له علمه، أما أن تكون حصيلته من الدين لا تساوي نقطة من بحر أمام علم الشيخ وتاريخه المشرف وقلمه المبرز، فإن هذا افتيات كبير غير مقبول.

إنني أتمثل ذكرى وفاة الشيخ الغزالي موسما لتأديب الشخصية السلفية، التي تتعلم أول مما تتعلم من هذا الطريق، كيف تسب وتقذف وتشتم وتتطاول على الأعلام، ولكن كما قيل:

ما يضر البحر أمسى ذاخرًا ** أن رمى فيه غلام بحجر

لقد حول أدعياء السلفية أن يصوروا الشيخ على أنه عدو السنة وعدو السلف، ومن ثم كان لابد من مجابهتهم وفضحهم بما تخدعهم به عقولهم، وكانت في كتابات الشيخ تأصيل كبير لمعنى السلفية، ومفاهيمها الحقيقية، والتي هي على غير ما يحاول هؤلاء الأدعياء إثباتها وتقنينها.

لقد كانت السلفية في تصور الشيخ رحمه الله، كما ذكر أحد الباحثين:

"نزعة عقلية وعاطفية ترتبط برقي القرون (القرون الهجرية الثلاثة الأولى) وتعمق ولاءها لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وتحشد جهود المسلمين المادية والأدبية، لإعلاء كلمة الله، دون نظر إلى عرق أو لون، وفهمها للإسلام وعملها له، ولقد أنكر الشيخ على هؤلاء فهمهم للسلفية على أنها فقه أحمد بن حنبل ﷺ، وعلل بأن هذا الفهم خطأ، لأن فقه أحمد ليس إلا خطا واحدًا من الخطوط الفكرية في الثقافة الإسلامية، التي تسع أئمة الأمصار وغيرهم مهما كثروا، كما أنكر

عليهم كونهم يعتقدون بأن السلفية هي مدرسة النص، وهذا خطأ، فإن مدرسة الرأي كمدرسة الأثر في أخذها من الإسلام واعتمادها عليه."

كما كان يصرح في غير ما مرة: بأنه رأى أناسًا تغلب عليهم البداوة أو البدائية، يكرهون المستكشفات العلمية الحديثة، ولا يحسنون الانتفاع بها في دعم الرسالة الاسلامية وحماية تعاليمها، يرفضون الحديث عن التلفزيون، على سبيل المثال، لأن ظهور الصورة على الشاشة في اعتقادهم حرام، ويتناولون المقررات الفلكية والجغرافية وغيرها بالهزء والإنكار، وهؤلاء لا يعتبرهم الشيخ الغزالي لا سلفا ولا خلفًا، ويصرح بأن أدمغتهم تحتاج إلى تشكيل جديد.

وذكر بأنه رأى أناسًا يتبعون الأعنت الأعنت، والأغلظ الأغلظ من كل رأي قيل، فما يفتون الناس إلا بما يشق عليهم وينغص معايشهم، ويؤخر مسيرة المؤمنين في الدنيا، ويأوي بهم إلى كهوفها المظلمة.. وهؤلاء أيضًا لا يعتبرهم لا سلفًا ولا خلفًا. ويخلص إلى أنهم أناس في انتسابهم إلى علوم الدين نظر، وأغلبهم معتل الضمير والتفكير.

إن مأساتنا في الجهل والغفلة وغيبة الثقافة الواعية، والوعي القويم، والفهم والانصاف والتحقق وتغليب الحق على الهوى والغرض.

وأغلب فتيان السلفية من شيوخهم، كالميت بين يدي مغسله، لينون طيعون مستسلمون لكل ما يعرض عليهم من إفك وشقاق، والهجوم على الشيخ الغزالي من أهم مقررات السلفية التي يقررها هؤلاء الذين عميت بصائرهم على غلمانهم، ولكن ما يكون حال هؤلاء الغلمان لو أنهم قرأوا كتب الشيخ وأدركوا حجم الجهود الضخمة التي قام بها وحده في نصرة هذا الدين، هل لهم أن يرتدوا للحق والصواب؟ هل لهم أن يكونوا كالأوزاعي رحمه الله حينما اعترف بالفضل لمن كان يحذر الناس منه وينعته بالبدعة والضلالة؟ أم على قلوب أقفالها؟!

يقول عبد الله بن المبارك قدمت الشام على الاوزاعي فرأيته ببيروت فقال لي: يا خراساني من هذا الذي خرج بالكوفة يعني أبا حنيفة، فرجعت إلى بيتي فأقبلت على كتب أبي حنيفة فأخرجت منها مسائل من جياد المسائل، وبقيت في ذلك ثلاثة أيام فجئته يوم الثالث وهو مؤذن مسجدهم

وإمامهم، والكتاب في يدي فقال: أي شيء هذا الكتاب؟ فناولته فنظر في مسألة منها وقعت عليها قال النعمان بن ثابت، فما زال قائما بعدما أذن حتى قرأ صدرًا من الكتاب ثم وضع الكتاب في كمه، ثم أقام وصلى ثم أخرج الكتاب حتى أتى عليها، فقال لي: يا خراساني من النعمان بن ثابت هذا، قلت شيخ لقيه بالعراق، فقال: هذا نبيل من المشايخ اذهب فاستكثر منه، قلت هذا أبو حنيفة الذي نهيتني.!

إن شيوخ السلفية اليوم يدربون شبابهم على هذا الخطأ وهذا السوء، ويعطون لهم الضوء الأخضر ليرددون هذا الهرف عن جهل وغباء، وبلا رحمة أو إعذار.

والسلوك الإسلامي في تقييم الناس علمنا أن نكون دوما منصفين فما كان من عيب نذكره، وقبل أن نذكره نبحث عن الأسباب التي دفعت إليه وأوجدته، ولا نتصيد الشبهات ونطير بها فرحين لأن نشوه ندًا لنا على طريق الدعوة وفي محراب العلم.!

يقول تعالى: (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك) وهكذا يتحدث الله تعالىٰ عن أهل الكتاب الذين ليسوا بمسلمين، فما أدراك حينما نتحدث عن المسلمين؟! لقد أقر الله تعالى حسناتهم ونوه بها قبل أن يذكر سيئاتهم، أي قدم الحديث الحسن على الحديث السلبي، وهي إشارة تعلمنا كيف نتعامل مع بني الإنسان حتى وإن اختلفوا معنا في ديننا.

نعم نقولها بوضوح: إن الخطأ اليسير مغتفر في جانب الخير الكثير، وهو ما أشار إليه بن القيم في مفتاح دار السعادة بقوله: "من قواعد الشرع والحكمة أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر فإنه يُحتمل منه ما لا يُحتمل من غيره، ومن هذا قول النبي ﷺ لعمر: (وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم).

[1] - سورة آل عمران: ٧٥

وحينما جلد النبيﷺ ذلك الصاحبي الذي شرب الخمر مرارًا وكان يلقب بالحمار، قال أحد القوم: اللهم العنه فما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: لا تلعنوه فو الله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله"

وما أجملها من كلمة وما أرقاها، كلمة طاهرة صافية سامية، تحتاج من شباب السلفية أن يعيشوا معها ويتوقفوا معها ويتأملوها كثيرًا.

ويقول سعيد بن المسيب: "ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، فمن كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله "[1]

ويقول الحافظ بن حجر: " والمنصف من اغتفر قليل خطأ المرء في كثير صوابه"

ويقول الامام الذهبي في ترجمة بن خزيمة: " ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده مع صحة إيمانه وتوخيه لاتباع الحق أهدرناه وبدعناه، لقل من يسلم من الأئمة معنا، رحم الله الجميع بمنه وكرمه"[2]

وما أعجب ما قال إمام دار الهجرة: " ما في زماننا شيء أقل من الإنصاف" ولكن قال هذا وهو من أصحاب القرون الأولى، فكيف به لو شاهد زماننا الذي تنكر لخلة الإنصاف، فصارت لا يقيمها إلا من تيقظ ضميره وغلب على هواه دينه.!

الانتصار على الظلام

لا تحسبن أنك بالسجن أعاذنا الله وإياك، قد انتهي حلمك وأملك وغايتك في الحياة، وأنك صرت لا قيمة لك ولا ميزان ولا مستقبل ولا فائدة ولا طموح، فهناك قوم تمكن الأمل من نفوسهم وأضاء جوانبها، حتى ولو عاشوا في القبور المظلمة.

وكم أتعجب حينما أقرأ في سيرة ابن تيمية رحمه الله، حينما دخل السجن أربع مرات في ست سنوات لم ييأس ولم ينتهي ولم يبحث له عن ركن في الزنزانة كي يبكي ويتحسر ويندب حظه وبؤسه، لقد استثمر رحمه الله وقته وسجنه في التأليف وكتابة الرسائل والردود على المخالفين،

[1] - البداية والنهاية لابن كثير
[2] - سير أعلام النبلاء

وأطول الفترات هي محبسه للمرة السابعة، مدتها عامان وثلاثة أشهر ونصف تقريبًا، ومنها أخرجت جنازته من سجن القلعة إلى مثواه الأخير، وقد فتح الله عليه العلم والدعاء، ولذَّة المناجاة والعبادة، بالرغم من حرمانه من قراءة الكتب، ووسائل الكتابة، فكان زاده في الخلوة الدعاء، وقوته فيها التضرع والبكاء، وغذاؤه الذكر والالتجاء.

وكان مما صنعه رحمه الله أنه دخل السجن وقام بالدعوة إلى الله تعالى، حينما وجد المحابيس مشتغلون بأنواع من اللعب يلتهون بها عما هم فيه، كالشطرنج والنرد ونحو ذلك من تضييع الصلوات، فأنكر الشيخ عليهم ذلك أشد الانكار، وأمرهم بملازمة الصلاة، والتوجه إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة والتسبيح والدعاء والاستغفار والدعاء، وعلمهم السنة ورغبهم في عمل الخير، حتى صار السجن بما فيه من الاشتغال بالعلم خير من الزوايا والربط والخوانق والمدارس، وصار المحابيس يختارون الإقامة عنده، ويترددون عليه حتى امتلأ بهم السجن"

ما أروع الامام بن تيمية رحمه الله، إنه يجدد في سجنه سيرة يوسف عليه السلام حينما قام بالدعوة إلى الله تعالى بين المسجونين بقوله: (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).

في فترة الستينات.. حينما قام الطاغية عبد الناصر باعتقال شباب وجماعات التيار الديني وزج بهم في السجون، كان من ثمرة هذا الظلم العظيم، أن تغيرت أخلاق المسجونين الجنائيين، وتحسنت علاقاتهم بالله، وصاروا يصلون ويلتزمون الأدب، وعرفت نفوسهم معنى الاستقامة، وتعلقت قلوبهم بحب الصلاح.

يقول الأستاذ محمد خفاجي في كتابه الرائع حينما غابت الشمس:

" إن المسجونين أنفسهم قد بدأوا يتشبهون بنا في أسلوب حياتهم، وأفضي الكثير منهم بمشاكله إلينا يلتمس عندنا الحل الشافي أو الرأي السديد المتفق مع الشرع، ويعتذر إلينا بدوره بالوسط

[1] - سورة يوسف: ٣٩-٤٠

الذي يساعده علي حياة الطهارة.. وأليس أن هذا المشتهر بالخطف، يعاملنا نحن بكل أمانة وشرف.. لقد بدأنا نستشعر المسؤولية عن هذه النفوس جميعًا.. فجميعهم في قبضة الخوف وضياع الثقة يعملون، وفي أمواج الحياة تتخبط مراكبهم الضائعة بلا أشرعة في بحر لجي بلا شطآن.. وأصبح وجودنا بينهم هو شاطئ الأمان، الذي ألقي كل منهم عليه همومه، وألتقط آماله، وأفضي بذات نفسه، واستعد أن يفعل من أجلنا المستحيل"

وأعرف صحفيًا كبيرًا لم يكن من الملتزمين، ولا يهتم بأمر الدعوة أو التظاهر والمعارضة، ولكنه اعتقل بالخطأ، وشاءت الأقدار أن يزامل شباب التيار الديني، فأثروا في نفسه تأثيرًا عظيمًا، وخرج بعد سجنه ليكون واحدًا منهم، يحمل همهم ودعوتهم وفكرهم.

وحينما اعتقل الشيخ ناصر الدين الألباني، أخذ يدعو داخل السجن بما كان يدعو به خارجه، فحث الناس على الالتزام بالكتاب والسنة وترك الابتداع في الدين، والانقياد لله ورسوله وترك التقليد، فاستجاب له خلق كثير من المسجونين، وحث الناس على صلاة الجماعة والجمعة في السجن والتي لم تقم قبل.

ولقد كنا نرى ونسمع عن شيء من هذا في السجون والمعتقلات أيام الخمسينات والستينات، حينما يعتقل عالم من العلماء أو داعية من الدعاة، فنرى السجن ينقلب رأسًا على عقب، حيث يؤثر بأخلاقه فيمن حوله من المساجين، ولا تمر إلا أيام حتى يكونوا من مريديه وأتباعه، الذين يتخلقون بسماته وصفاته ويحاكونه في وقاره ويقينه، وتلك لعمري معجزة أي معجزة.!

حينما يتحول اللصوص والشطار وعتاة المجرمين، إلى أئمة للهدى، ومثلا مختارة من عباد الله الصالحين.

كانوا يصلون ويتعبدون ويقيمون الليل ويقرؤون القرآن ويحثون على الخير، بعد أن كانت أيادي الكثيرين منهم ملطخة بالشرور والآثام، حتى الشيوعيين الذين ينكرون الأديان، كانت بذرة الإيمان تدب في قلوبهم، وإذا أصروا على أفكارهم، فإن الانقلاب كانت تسري جذوره إلى كثير من أخلاقهم وصفاتهم، فيتعلمون كثيرًا من النبل والرقي.!

انظر معي ودعني هنا أحكي لك نبأ (ميوات) وهي منطقة في الهند معروفة عبر تاريخها باللصوصية والشطارة، والنهب والغارة، حتى أن أبواب سور العاصمة دلهي، كان تقفل وتوصد بعد الغروب خوفًا من لصوص منطقة ميوات، وحدث أن توجه إليها مرة أحد العلماء على سبيل الرحلة والزيارة، فإذا به يرى حدثًا مدهشًا، وانقلابًا غريبًا مثيرًا للنفوس، لقد رأى سكانها الذين كان القتل عندهم أهون شيء، وقد يقتلون المرء على الأمر التافه، أو الدراهم الزائفة، تحولوا بقدرة قادر، فأصبحوا يحرسون الأموال والأعراض، ويعفون عن المحارم، بل رأى فيهم ما هو أكثر دهشة، وهو إقبالهم على العلم والتواضع، والحفاوة والضيافة ودماثة الخلق، رأى كذلك إيثارًا على النفس، وألفة ومودة بين الناس، لا تتمتع بها كثير من المدن في زمن المادة الباغي، رأى عزوفًا عن الشهوات، وصبرًا على المشاق، وإيمانًا وصلاحًا.!

وكان أمام هذا التحول الخطير، لابد له أن يسأل عن السبب، ويعرف سر هذا التغير المدهش الكبير، ولعل ذهنه قد صور إليه أن هؤلاء الناس قد نزل فيهم ملك من السماء، أو بعث فيهم نبي بعد ختم الأنبياء.

ولكنه لما استفحص الأمر، عرف السبب في هذا الانقلاب الأخلاقي العظيم، والذي لم يكن وراءه جمعية ولا جامعة، ولا دعاية ولا صحيفة، وإنما كان الرباني المعجزة الشيخ (محمد إلياس الكاندهلوي) وهو رجل عالم متواضع، داعية رباني صالح، استطاع أن يبث الروح في هذه الأمة الشريرة المنحطة.

عاش مع الرجل مدة، فرآه كما يرى الناس من التقوى والعبادة والهمة العالية، والسعي على مصالح الناس ووعظهم ودعوتهم إلى البر والخير.

وهكذا يكون دور الربانيين، في حياة الناس خير وبركة وبر وتقوى، وعلى قدر ما كان هؤلاء الشطار هم أراذل الخلق وشر الناس، ومن يستحقون غضب الله لسوء فعلهم منكر إثمهم، لكن القدر كان يخبئ لهم السعادة الحقيقية، سعادة الايمان، حينما تبدل حالهم على يد هذا المنقذ الكريم.

ورحم الله أهل منبج وما هم من أهل ميوات ببعيد، حينما حل فيهم الرباني المؤثر، فتغير الحال وتبدل المآل.. قال رجلٌ من أهل منبج: قَدمَ علينا الحكمُ بن حنطب؛ وكان فقيراً لا مال له؛ ولكنه أغنانا كلنا؛ فقيل له: كيف ذلك؟ قال: علَّمنا مكارمَ الأخلاق، فعاد غَنيُنا على فقيرِنا؛ فغنينا كلنا!

المشايخ لا يقرؤون !

في قريتي الريفية كانت نشأتي التي عرفت فيها طريقي إلى المسجد يوم الجمعة، حيث كنت أشاهد رجلاً يقف على سلالم خشبية عالية، ويقول للناس كلامًا لا أفهمه.! كل ما أذكره فقط.. أن والدي رحمه الله، كان في غاية الضيق لكثير من أخطاء الرجل التي يأتي بها فيما يسمونه خطبة الجمعة.

ومن يومها انطبع في ذهني أن هذا الرجل الذي يعتلي هذا المكان العالي له أخطاء.. وينتقده والدي فيما أصاب من هفوات العلم واللغة.. ولما كبرت أدركت أبعاد المشكلة، وهي أن المشايخ الكرام لا يقرؤون ولا يثقفون أنفسهم، وأنهم أبعد ما يكونون عن العلم الحقيقي الذي ينفع الناس، ويُثري عقولهم، ويقوم أفهامهم، فأحدهم ينشغل بتجارته أو حقله أو محله أو أي مصلحة دنيوية تدر عليه مالاً وتساعده في أمور الحياة، بينما يقتضي صعوده للمنبر أن يتفرغ للقراءة ويُعنى بالبحث ويهتم بالعلم.!

وفي أيام رمضان حيث الدروس المتتابعة، لا يلقن الشيخ من حوله من الناس إلا أحكام الفقه ويمر الشهر وهو لم يفرغ بعد من الوضوء وأحكامه.. حتى يريح رأسه وباله من القراءة والتحضير، وحجته في ذلك قوية، فالناس لابد لهم من معرفة الفقه، لأنه الطريق للعبادة وبدونه لا تقوم.. أما أن يحدثهم فيما يقوم حياتهم وسلوكهم، فإنه كان يفر من ذلك فرار السليم من الأجرب، لأنه ميدان لا يقوى عليه ويفتقر القراءة فيه.

إن أغلب المشايخ جاؤوا في المكان الخطأ.. فهم يعتبرون أنفسهم مجرد موظفين وأن صعودهم للمنبر مهنة كأي مهنة، ولم يخطر ببالهم يومًا أن تكون رسالة يؤدونها، أو دعوة يبلغونها للناس من رب العالمين.! ولعل هؤلاء الشيوخ يخجلون من أنفسهم.. ولعلنا نحن ندرك الفارق

الرهيب، إذا ما قارنا حالهم بحال العلماء السابقين من جهابذة الأمة، الذين وصل حالهم في القراءة إلى درجة العشق والإدمان.

لقد كانت القراءة لدى علماء السلف متعة حياتهم ولذة عيشهم.. لا يستطيعون أن يمر يوم من أيامهم دون القراءة والمطالعة، فأزمانهم أغلبها بين الكتب، يقرؤون ويستفيدون ويعتبرون ويستمتعون وينهلون من فيض معارفها، ووافر كنوزها.

قال (ابن أبي حاتم) رحمه الله: (كنت أقرأ على أبي وهو يقرأ وهو يكتب وهو يمشي وهو يركب وهو في بيت الخلاء)

وكان (الخطيب البغدادي) لا يمشي في طريق إلا وفي يده جزء يطالعه، وكذلك كان النووي أيضاً..

وكان الإمام (ثعلب) أحد أئمة النحو والأدب، إذا دعاه رجل إلى وليمة، يشترط على صاحب الوليمة أن يجعل له فراغاً لوضع كتاب يقرأ فيه.. وكان سبب موته أنه خرج يوم الجمعة بعد العصر من المسجد، وكان في يده كتاب يقرأه، فجاءت فرس فصدمته، فسقط في هوة، فأُخرج وهو يتأوه ويصيح، ومات اليوم الثاني.!

وأما (الفتح بن خاقان) فإنه كان يحمل الكتاب في كمه أو في خفه، فإذا قام من بين يدي المتوكل للبول أو الصلاة، أخرج الكتاب فنظر فيه وهو يمشي، حتى يبلغ الموضوع الذي يريده، ثم يصنع مثل ذلك في رجوعه، إلى أن يأخذ مجلسه، فإذا أراد المتوكل القيام لحاجة، أخرج الكتاب من كمه أو خفه، وقرأه في مجلس المتوكل إلي حين عوده.!

وغير ذلك كثير من الأنباء أفردت لها فصلا في كتابي (اقرأ.. رسالة الوحي الأولى)

إن الشيخ الغزالي رحمه الله لما عين إمامًا وخطيبًا في جامع عمرو بن العاص، كان يقول: لقد نفدت بضاعتي وعرضت على الناس كل ما في جعبتي، فبدأت أقرأ لآتيهم بالجديد، فقرأت في العلوم العصرية وحدثتهم عن نظرية أينشتين وداروين.. ولإدراك الشيخ الغزالي بقيمة القراءة للداعية، أو بمعنى آخر حتمية وضرورة القراءة للداعية، كان يقول: (للقراءة أهمية خاصة لكل من يدعو

إلى الله؛ بل هي الخلفية القوية التي يجب أن تكون وراء تفكير الفقيه والداعية، وضحالة القراءة أو نضوب الثقافة، تهمة خطيرة للمتحدثين في شؤون الدين؛ وإذا صحت تزيل الثقة منهم.. إنّ القراءة أي الثقافة، هي الشيء الوحيد الذي يُعطي فكرة صحيحة عن العالم وأوضاعه وشؤونه، وهي التي تضع حدوداً صحيحة لشتى المفاهيم؛ وكثيراً ما يكون قصور الدعاة راجعاً إلى فقرهم الثقافي.. والفقر الثقافي للعالم الديني أشد خطورة من فقر الدم عند المريض وضعاف الأجسام.. ولذلك لا بد للداعية إلى الله أن يقرأ في كل شيء، يقرأ كتب الإيمان، ويقرأ الإلحاد، يقرأ في كتب السنة، كما يقرأ في الفلسفة.. وباختصار يقرأ في كل منازع الفكر البشري المتفاوتة؛ ليعرف الحياة والمؤثرات في جوانبها المتعددة.)

ولقد سبق قديمًا أن ندد شيخنا (يوسف القرضاوي) بنفس الدعوة في مقال له بمجلة (منبر الإسلام) تحت عنوان (يا أصحاب الفضيلة اقرؤوا) طالبهم في بالقراءة حين لاحظ ضعفهم الثقافي، وإعراضهم عنها، واكتفوا بالحصول على شهادة العالمية، التي ظنوا أنهم معها قد سقط عنهم التكليف.. وهو التصور الذي يخالف حال السلف الصالح يومًا من الأيام، الذي أثر عنهم اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد، وكان بعضهم وهو في مرض الموت يأمر تلاميذه أن يقرؤوا عليه حتى يأتيه الموت وهو يطلب العلم.. ويبين القرضاوي أن أولى الناس بالقراءة وتعميق الثقافة، هم المشايخ الذين يتصدرون لتوجيه الناس، وخصوصًا الدعاة وخطباء المساجد الذين يواجهون الناس كل أسبوع، ولابد أن يكون لديهم شيئا يقولوه ويعرضونه عليهم.. ومن فرط اهتمام شيخنا القرضاوي بهذا الموضوع وتأكيده عليه، أفرد له مؤلفًا قويًا مؤثرًا سماه (ثقافة الداعية).

إن عدم اهتمام المشايخ بالقراءة والثقافة، من أكبر الكوارث التي تواجهها هذه الأمة، بل من أكبر الأزمات التي جعلت أمتنا في موقف حرج، لأن القراءة تعني الثقافة، والثقافة تعني الوعي والوعي يعني النهوض.. وحينما لا يقرأ المشايخ، فإنهم يفقدون الوعي، وإذا كان الذين من

المفترض أنهم يوعون الناس ويعلمونهم ويوجهونهم، يفتقدون للثقافة الخالصة، فيكيف إذن تكون النتيجة؟! لاشك أنه الجهل والغباء والسذاجة، تملأ حياة الناس وتهيمن على عقولهم.!

شيوخ يسحقون الشيطان

رجل الدين أو عالم الدين أو الرجل المتدين، رجل كأي رجل، يمكن أن يفتن، ويمكن أن يغويه ما يغوي كل البشر.

أي نعم.. إنه كعابد أو كعالم يمكن لعبادته أن تحصنه من الوقوع في الرذائل، وتمنع عنه حبائل الشيطان، لكنها حصانة لا تؤتى ولا يتمكن منها إلا أولي العزم من الرجال، الذين أنعم الله عليهم بحفظ عظيم.

لكن كثيرًا من هذه الطائفة المباركة، قد تقع فيما يقع فيه كثير من الرجال، خاصة وأنهم قد تربوا ونشأوا على حرمان من المرأة وامتناع عما يثير كثير من الشهوات، وإذا لم يكن لهم إيمان شديد يعصمهم، فسوف يسقطون ويقعون في حبائل الشيطان.

وهي لمسه يجب على كثير من الناس إدراكها، فلا يسلمون أعراضهم أو خصائصهم للشيوخ بحجة أنهم من أهل الصلاح، فيكون هذا سبيلا للوقوع في الفتنة وحدوث مالا يحمد عقباه.

وكثير من العباد والمترهبنين في الأمم السابقة، قد وقعوا في الشهوة والخطيئة، لأن عبادتهم كانت تحركات بدنية، وعملية صورية، لم يدعمها إيمان قوي ويقين شديد بالله، يربي الإرادة، ويقوي العزيمة، ويزكي النفس، وهي المقومات التي تحمي صاحبها من الزلل والوقوع في الحرام.

وهناك قوم سوء في مجتماعتنا يدركون هذه الحقيقة، ولكنهم يدركونها بتصور تعيس وظنون حمقاء، فيدعون أن الشيوخ هم أمكر الناس، وأخبث البشر، فهم يلقونك بالتقوى ونفوسهم مليئة بأماني الشيطان، ويقف أحدهم في المحراب يؤم الناس، وفي الشارع يختلس النظرات للنساء.!

وهكذا يشاع في هذه المجتمعات التي منها مجتمعاتنا للأسف نظرة السوء للأئمة والدعاة، فتخرج الأجيال وتتحدث النوادي والحضرات، بخبث الفئة الربانية ودنس الطليعة المؤمنة.

لكننا نثبت لهم ونحب أن نخاطب ظنونهم بقولنا: إن الشيوخ بشر كأي بشر، ولهم إيمان من الممكن أن يكون قويًا ومن الممكن أن يضعف.. وأن هناك فرق بين من يفعل المنكر ضعيفًا مغصوبًا مدفوعًا بغلبة الشيطان، ثم يعقب ما فعله بندم كبير، وبين من يفعله مختارًا حريصًا ساعيًا منتشيًا سعيدًا مجدًا.

كما نحب أن نؤكد لهم أن في الشيوخ نماذج ربانية عفيفة قوية الأيمان، لا يقهرها الشيطان مهما سعى واجتهد، فإيمانهم عنيف يسحق أمامه أي صورة للغواية، تحرص أن تحوم حوله حتى ترديه بالضلالة، فيرتع في معصية تذبح إيمانه.

كان الربيع جميلاً كأشد ما يكون الجمال، حتى إن المرأة إذا نظرت إليه لا تستطيع أن تملك نفسها، وقيل عنه: إنه كان يُغطي على جزء من وجهه حتى لا يفتن النساء، ولكن كان مع هذا من أعظم عباد الله خوفًا من الله، وكان عُمره لا يجاوز الثلاثين؛ وكان في بلده فُسَّاق وفُجَّار يتواصون على إفساد الناس، وليسوا في بلد الربيع فقط، بل هم في كل بلد، مجموعة تسمى فرقة الصدِّ عن سبيل الله، يهمُّها أن تقودَ شباب الأمة وشيبها ونساءها إلى النار.

تواصوا على إفساد الربيع، فجاؤوا بأجمل امرأة عندهم، وقالوا: هذه ألف دينار، قالت: علام؟ قالوا: على قُبْلة واحدة من الربيع، قالت: ولكم فوق ذلك أن يزني، ثم ذهبت وتعرَّضت له في ساعة خلوة، وأبدت مفاتنها، ووقفت أمامه، فلما رآها صرخ فيها قائلاً: يا أمة الله، كيف بك لو قد نزلت الحمى بجسمك، فغيرت ما أرى من لونك وبهجتك، أم كيف بك إذا نزل ملك الموت، فقطع منك حبل الوتين؟! أم كيف بك يوم يسألك منكر ونكير؟! أم كيف بك يوم تقفين بين يدي الربِّ العظيم؟! أم كيف بك إن لم تتوبي يوم تُرمَيْن في الجحيم؟! فصرخت وولَّت هاربة تائبة عابدة عائدة إلى الله – عز وجل – تقوم من ليلها ما تقوم، وتصوم من أيامها ما تصوم، فلقِّبت بعد ذلك بعابدة الكوفة، وكان هؤلاء المفسدون يقولون: أردنا أن تفسد الربيع فأفسدها الربيع علينا؛ {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ}

والمرء يتساءل عن حال هذا الرجل: ما الذي منحه كل هذه الصلابة، أهو قليل الشهوة أم عظيم الإيمان.؟!

وهنا أحكي لك نموذجًا من العصر الحديث..

:كان الشيخ رشيد رضا قد أشيعت عنه البركة، فكان يرقي الناس ويدعو لهم بالشفاء، فيشفيهم الله تعالى بقدرته، وذات يوم جاءته فتاة بارعة الجمال، في مكان خال إلا أنه مكشوف وقالت له: يا سيدي صدري ضيق حط إيدك المباركة عليه.

فقال لها: إن اليد التي توضع على صدر امرأة أجنبية مثلك، يد نجسة لا مباركة، لأن هذه معصية، فاذهبي وأنا أدعو الله تعالى أن يشرح صدرك ويزيل ضيقه.

فروا من المناصب

لي صديق في العمل عرفته منذ ثلاث سنوات، كانت علاقتنا قائمة على المرح، وكنت أداعبه دوما حينما أراه بقولي: اذيك يا سحس، ولكن قدر الله أن يتقلد هذا الزميل منصب المدير لإحدى الإدارات في مؤسستنا، وفجأة وجدته يقول لي: ياريت تقلي يا أبو محمد.!

وتعجبت من هذا التغير المفاجئ، ولكن بعد برهة تذكرت ما آل إليه وقلت: سبحان الله، إن السلطة والمنصب الجديد، هما سبب التغيير الذي طرأ على صاحبي وقضى على الود القديم.

هل تتخيل أن عبد الملك بن مروان قبل الخلافة من العباد الزهاد الفقهاء، الملازمين للمسجد، التالين للقرآن.

نعم لقد قال عنه نافع: لقد رأيت المدينة وما فيها شاب أشد تشميرًا، ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان.!

وقال الأعمش عن أبي الزناد: كان فقهاء المدينة أربعة: سعيد بن المسيب، وعروة، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك بن مروان، قبل أن يدخل في الإمارة.

وقال عنه الشعبي: ما جالست أحدًا إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان؛ فإني ما ذاكرته حديثا إلا زادني فيه، ولا شعرا إلا زادني فيه.

وقال ثعلب عن ابن الأعرابي: لما سلم على عبد الملك بالخلافة كان في حجره مصحف، فأطبقه، وقال: هذا فراق بيني وبينك.

وقيل: إنه لما وضع المصحف من حجره قال: هذا آخر العهد منك.

وروى الحديث عن أبيه، وجابر، وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وابن عمر، ومعاوية، وأم سلمة، وبريرة مولاة عائشة.

وروى عنه جماعة منهم: خالد بن معدان، وعروة، والزهري، وعمرو بن الحارث، ورجاء بن حيوة، وجرير بن عثمان.

بعد هذه الأخبار كلها، هل لك أن تتخيل أن هذا الذي قيلت فيه، هو نفسه عبد الملك بن مروان الذي أوغل في دماء المسلمين، وهو الذي استعمل الحجاج بن يوسف الثقفي، أكبر طغاة العرب والمسلمين وكفى به إثمًا؟!

نعم إنه عبد الملك الفقيه العابد الملازم للقرآن وراوي الحديث، أحد الأربعة الفقهاء في المدينة والذي ساوت رتبته رتبة سيد التابعين سعيد بن المسيب، ورغم هذا ينقلب حاله بسبب السلطة والحكم والعرش (١٨٠) درجة، ليكون حاكمًا لديه الاستعداد للظلم والقتل وسفك الدماء وتعيين الطاغية الفاجر ليتولى أمر المسلمين؟!

يالها من مفارقة عجيبة، اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.

حتى الطاغية الحجاج نفسه كان معلمًا للقرآن، ولا أعرف لماذا لم تمس آية من آيات الهداية قلبه المتحجر فتملأه بالرحمة، أم أن الله تعالى ران عليه؟!

إن السلطة والجاه هما الاختبار الحقيقي لإيمان المسلم، وهما الفتنة العظمى التي لا يصمد أمامها إلا أصحاب النفوس الزكية (من التزكية).

أعرف عالم دين معمم وللأسف ينتمي لدوحة الأزهر الشريف، ظل طوال حياته ينافق السلطة، ليجعلوا منه وزيرًا أو رئيس جامعة أو مفتيا للديار، حتى ساقه الغباء والحمق أن يظهر في التلفاز ليقول على الملأ، نعم أنا من علماء السلطة، وأنا من علماء الحكومة، ويفتخر بذلك جدا، ولا يعلم

أن الزي الذي يرتديه يكاد لو نطق أن يتبرأ منه ومن فعلته، التي رخصت العلم وأهانت العلماء، ومرغت كرامة وتاريخ الأزهر في الوحل.

دائمًا ما أتمثل الشيخ الشعراوي في خيار السلطة، وكيف أن الرجل لأنه العارف بربه، لم يستقم حاله، ولم يستقر به المقام وزيرًا للأوقاف، وسرعان ما قدم استقالته، لأن أهل الله لا يتسلمون المناصب التي يخدمون بها السلاطين والحكام، وأنهم لا شك لن يسيروا في الطريق الذي يرضي الله، وإنما الذي يرضي السياسة والحاكم.!

بعضهم يتحجج بأن المنصب يتيح للمرء خدمة الناس قدر الإمكان، ولكن صدقني، فما ستخسره أكثر بكثير مما ستكسبه، لقد أعلن الشافعي رحمه الله قديما شعار العلماء وموقفهم من السلطة، وأعلن لهم كلماته الخالدة التي ساقها شعرًا فصيحًا وبيانًا عذبًا رائقًا حينما قال:

إن الملوك بلاء حيثما حلوا* فلا يكن لك في أبوابهم ظل

ماذا تؤمل من قومٍ إذا غضبوا* جاروا عليك وإن أرضيتهم ملوا؟

فاستغن بالله عن أبوابهم كرماً* إن الوقوف على أبوابهم ذل.

لقد قال الشافعي هذا ودين الله قائم، والخلافة المباركة تحكم بشرع الله، وتقيم الجهاد في الأرض.. فماذا يكون منه لو أدرك هذه الأيام؟!

الموت يذهب بالأحقاد

يمكن أن يكون بيننا خلاف كبير وتباين في وجهات النظر، بل يمكن أن يكون بيننا كره كبير ونفور لا طاقة لأحد به، لكننا عند الموت ننسى كل شيء، فيتحول هذا الموت إلى نار تأكل كل ما علق بيننا من خصومة، أو شلالا عارمًا من الماء يمحو في طريقه رواسب البغضاء والإحن.

الشرفاء والأسوياء وحدهم من يفعلون هذا، وتنطلق ذواتهم من تلقاء نفسها للاستجابة لذلك، فالموت له هالته العظيمة ووقعه المؤلم على القرائح، حين تنهد له القلوب وتخور له الصدور.

إنها الأخلاق التي يفتقدها كثير ممن يختلفون ويتغايرون ويتباينون.!

الشيخ صالح الشريف التونسي (١٨٦٩ - ١٩٢٠) شيخ تونسي، تخرج من جامع الزيتونة، ودرس فيه وكان أصغر من درس فيه سنًا، من تلاميذه الطاهر بن عاشور، ومحمد النخلي، قاوم الغزو الفرنسي لتونس، تعاون مع الجمعيات التي تحض المسلمين على الجهاد ضد الإنجليز والفرنسيين، ثم انغمس في العمل السياسي، فحاكمته فرنسا، ففر إلى إسطنبول، ثم إلى دمشق حيث أسس "جمعية الأخوة التونسية الجزائرية" ودرس بالجامع الأموي.

قاوم الشيخ الاستعمار بكل أنواعه ونشط في هذا الميدان مع الأمير شكيب أرسلان وتخرج على يديه مقاومون سياسيون.

وعندما احتلت إيطاليا ليبيا، كان أول من دخل إلى طرابلس عن طريق برقة للجهاد، وفي سنة ١٩١٥ انتقل إلى ألمانيا، وقام بنشاط كبير في سبيل القضية الجزائرية – التونسية، والتقى المسؤولين الألمان، وعلى رأسهم قيصر ألمانيا، وفيها أصدر الشيخ صالح برفقة الشيخ الخضر الحسين "مجلة الجهاد" وأسس (لجنة استقلال تونس – الجزائر) وبعد مشادة سياسية مع القيصر ويليم الثاني ترك ألمانيا إلى سويسرا، فشارك في تأسيس "مجلة المغرب" كما راسل في ٢ يناير ١٩١٩ الرئيس الأمريكي ويلسون للمطالبة بحق شعوب المغرب العربي في استعادة استقلالها.

كان للشيخ مناظراته الدينية، والتي من أشهرها ما كان في الحجاز مع أحد أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب، حيث كان ضد تحريم زيارة القبور، ومناظرة أخرى مع الشيخ محمد رشيد رضا صاحب المنار، كما ناظر بعض العلماء المتشددين.

وكان يخاطب ويحمس جنود الخطوط الأمامية على الجهاد، حتى أنه تلقى رصاصة في ذراعه عندما كان ضمن إحدى المعارك مع مقاتلي الشيشان ضد ما كان يسميهم الموسكوف، وحذر من الأيديولوجية الشيوعية، وجاب الشيخ العالم بدعوته أينما حل، ولم يستطع العودة حيا إلى تونس موطن مولده.

يروي لنا الأمير المفكر الشاعر النبيه شكيب أرسلان أنه كان متوجها للجهاد في طرابلس، ولما ذهب إلى برقة مكث بها ٨ أشهر في معسكر عين منصور، وأنه تلاقى مع الشيخ صالح الذي كان

يمقت آراء السيد رشيد رضا في الدين، وحاول شكيب جاهدًا أن يعدل من أفكاره عن رشيد، لكنه كان مصرًا على موقفه، وسوء ظنه برشيد وأستاذه الإمام، وقد جرت مناظرة بينه وبين الشيخ رشيد، لم يتفقا فيها على رأي، وكان مما قاله الشيخ صالح لشكيب ويدلل على شدة نفوره من صاحب المنار: إنه مرة كان يقرأ في مجلته المنار، فظهر الغضب على وجهه وقال: إن فيها كثيرًا من الضلال وأحيانًا من الكفر والعياذ بالله!

ثم قال: إنه نسي عددًا منها في خيمته، فكان أن طلعت عليه الشمس ذلك اليوم قبل أن يُصلي صلاة الفجر، وإنما كان ذلك من شؤم المنار.!

فضحك شكيب كثيرًا للموقف، وقال: سبحان الله لا أرى عداوة أشد من عداوة العلماء، وقطع الأمل في تعديل أفكار الشيخ صالح عن رشيد والإمام محمد عبده.!

ولما رجع شكيب إلى مصر التقى برشيد، حيث عاتبه على مجالسته للشيخ صالح، فرد شكيب: بأنه كان كثير الدفاع عنه وعن أفكاره أمام خصمه.

ولما توفي الشيخ صالح اجتمع رشيد مع شكيب وسأله عن وفاته، فقال له: لقد مرض في دافوس حيث كان يعلم العربية والعقيدة أنجال الأمير عمر طوسون، واشتد المرض على قلبه حتى فارق الحياة.!

يقول شكيب: وبينما كنت أقص ذلك على السيد رشيد، اغرورقت عيناه بالدموع وقال لي: نعم جاءنا نعيه ونحن في الشام، وتأثرنا والله كثيرًا لفقده، لا شك أن الموت يذهب بالأحقاد كلها.

وهكذا يجب أن يكون خلق رشيد، وهكذا يجب أن يكون الحزن على هذا البطل المجاهد، مهما كان خلافنا معه، ومهما كنا نبغضه ويبغضنا، وبيننا وبينه من الخصومة مع يماثل الجبال والبحار.!

حينما مات الشيخ الغزالي رحمه الله ذكر أن الشيخ الشعراوي قال في نعيه:

(رحمه الله صحابي بُعث في القرن العشرين، وحيد عصره وفريد نوعه)

والحق أن الحب بين العلماء نادر وقليل، وقلما تجد عالما يخلص بالمودة لعالم مثله، فمما يشاع بينهم أن الغيرة أذهبت هذا الود.

ولكن العلماء وهم القائمون على علم الله تعالى، لا يعدم فيهم الخير والبركة والإخلاص والحب لبعضهم البعض، وهي نفس الروح التي نجدها في عالم الشعر، فقد كانت المنافسة شديدة بين شوقي وحافظ، فلما مات حافظ رثاه شوقي بهذه القصيدة العصماء والتي كان مطلعها:

قَد كُنتُ أوثِرُ أَن تَقولَ رِثائي ** يا مُنصِفَ المَوتى مِنَ الأَحياءِ

لَكِن سَبَقتَ وَكُلُّ طولِ سَلامَةٍ ** قَدَرٌ وَكُلُّ مَنِيَّةٍ بِقَضاءِ

الحَقُّ نادى فَاِستَجَبتَ وَلَم تَزَل ** بِالحَقِّ تَحفِلُ عِندَ كُلِّ نِداءِ

والحق أن للموت جلال ورهبة، وتزول أمامه كل الخصومات والزلات والهنات، ويتناسى الناس فيما بينهم كل الإحن والخصومات، ولا يبقى إلا الحق وحده ناطقًا بجلال الموقف، مترحمًا على من فاضت روحه إلى بارئها، وأفضى إلى ما قدم.!

ومما يروى في هذا الشأن من سيرة العلامة صديق حسن خان، أنه لما سمع بخبر وفاة أكبر مخاصميه في العلم وهو المولوي عبد الحي اللكنوي، انعقد لسانه من شدة الحزن، وأغلق عليه بابه ثلاثة أيام، ولم يسمح لأحد بالدخول عليه خلال هذه المدة، وكان يقول:(لقد خيم الظلام على آفاق الهند، إن عبد الحي لم يمت، بل الهند ماتت، ليتني مت قبله، لقد بلغت من الكبر عتيا" وبقي على هذه الحالة النفسية أسبوعًا، ولم يعد يكتب شيئا بعد وفاة عبد الحي وكان يقول: لم يبق رجل يعي الكلام حتى أكتب!

هكذا تلقى الرجل الطيب والعالم المخلص خبر وفاة خصمه الذي كانت بينهما ردود علمية عنيفة، حتى أن للكنوي كتاب بعنوان (نقد أوهام صديق حسن خان) وذلك لأنه كان حنفيًا صوفيًا بينما صديق على طريقة أهل الحديث.!

ولعلي بتأمل هذا الموقف أتعجب كثيرًا من الحالة التي وصل إليها بعض علماء الازهر في بعض الفترات الزمنية، حينما كان الشيخ يسر بوفاة الشيخ، لأن رحيله يتيح له أن يجلس مكانه ويترشح لمنصبه؟!

الأزهر.. ليس شريفًا كله!

حينما وصل محمد علي إلى حكم مصر، رأى أن يُضعف السلطة الشعبية التي أتت به، لأنها يمكن لها وبكل سهولة أن تطيح به كما جاءت به، وكونها تمثل سدًا منيعًا أمام الكثير من أطماعة وشهواته في السلب والسيطرة والنهب والطغيان.. فعمل هذا الطاغية جاهدًا على وأد هذا النفوذ الشعبي، من خلال الإطاحة بزعيمه عمر مكرم، والحكم عليه بالنفي إلى دمياط.

وكان رحيل السيد عمر إلى دمياط مشهدًا مؤثرًا، شعر الناس مع هذا القرار بحجم النكبة وعظم الخسارة التي منيوا بها، فالرجل لم يكن في حياتهم شخصًا عاديًا، وإنما كان حاملا لهمومهم، كاشفًا لكروبهم، يجاهد من أجلهم، ويدافع عنهم، ويرد مظالمهم، ولكنهم أمام عسف الحاكم الباغي لم يملكوا إلا أن يسكبوا الدمع في وداعه بعواطف مكلومة، وقلوب ملتاعة يعصف بها الحزن العميق.

قال الجبرتي: " وشيعه الكثيرون من المتعممين وغيرهم، وهم يتباكون حوله، حزنا على فراقه، واغتم الناس لسفره وخروجه من مصر، لأنه كان ركنا وملجأ ومقصدا للناس لتعصبه لنصرة الحق، فسار إلى بولاق، ونزل في المركب، فسافر من ليلته بأتباعه وخدمه الذين يحتاج إليهم إلى دمياط".

هذا حال جمهور الناس وبعض المعممين الصادقين، لكن الموقف كان كفيلا أن نرصد فيه حالة أخرى، وهي حالة العمائم الضالة الخائنة الفاسدة التي جعلت من ذواتها خدمًا للحاكم، ومطية تحد قديمة، تدافع عن زوره، وتبرر بغيه وظلمه، وتحرض على خصومه، وتشوه أنداده، وقد كان لهم موقفهم الحقير المتدني، الذي لن ينساه التاريخ، ولن يغيب من صفحاته حينما تعاملوا مع محنة هذا الزعيم الوطني بإفراط من الخسة والنذالة التي لا نظير لها.. لقد شاركوا الوالي في مؤامرة دنيئة، ليوقعوا الشيخ ويصدق عليه قرار النفي، وبعد أن تم للباشا ما أراد.

المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي، تحدث عن هذه الخيانة فيما نقل عن الجبرتي، وسجلها في كتابه عن محمد علي فقال:

"ذهب الشيخ محمد المهدي عن إظهار، يلتمس المكافأة على تدبير المؤامرة، فطلب وظائف السيد عمر، فأنعم عليه الباشا بنظر أوقاف الإمام الشافعي، ونظر وقف سنان باشا ببولاق، وطلب كذلك ما كان منكسرًا له من راتبه من الغلال نقدًا أو عينا مدة أربع سنوات، فأمر محمد علي بدفعها إليه نقدًا من خزانة الحكومة، وقدرها خمسة وعشرون كيسا "وذلك كما يقول الجبرتي:"في نظير اجتهاده في خيانة السيد عمر حتى أوقعوا به ما ذكر".

ولم يكتف الشيوخ بالتواطؤ مع محمد علي باشا على الوقيعة بالسيد عمر، بل أخذوا بعد نفيه يعملون على النيل من سمعته، ولعلهم رأوا مظاهر حب الناس له حزنهم لفراقه، وعطفهم عليه، فأرادوا أن يحاربوه بسلاح الافتراء والتشهير، ليسوغوا فعلتهم، فكتبوا عرضًا لإرساله الى الآستانة، يبررون فيه عزل السيد عمر من نقابة الأشراف ونفيه، نسبوا إليه فيه، أنه أدخل في دفتر الاشراف أسماء أشخاص ممن أسلموا من الأقباط واليهود، وانه قبض من محمد بك الألفي مبلغًا من المال ليمكنه من حكم مصر في أيام قيام الجمهور على أحمد خورشيد باشا الوالي السابق، وأنه كان متواطئًا مع الأمراء المماليك حين شرعوا في مهاجمة القاهرة يوم الاحتفال بوفاء النيل سنة ١٨٠٥، وانه أراد أخيرًا أحداث فتنة بين الجمهور ليخلع الباشا ويولي خلافه.

وقد نمق الشيوخ هذا البيان، وطافوا به على زملائهم ليوقعوا عليه، فامتنع كثير منهم عن التوقيع، وبرءوا السيد عمر مما رمي به وقالوا: "هذا كلام لا أصل له"، وحصلت مشادة بين رؤساء الشيوخ المدبرين لهذا المنشور وبين الممتنعين عن التوقيع، ثم غيروا صورة المنشور، وخففوا لهجته ليحملوا زملاءهم على توقيعه فامتنع كذلك بعضهم، وكان اشدهم اصرارا على استنكاره والامتناع عن توقيعه السيد أحمد الطحطاوي مفتي الحنفية، وكان من العلماء الصالحين المتنزهين عن المطامع الدنيوية، فسخط الشيوخ عليه وتهددوه بعزله من منصبه، فلم يعبأ بهم فعزلوه، وولوا بدله الشيخ حسين المنصوري، وخلع عليه محمد علي باشا خلعة الافتاء، فلم يكترث السيد الطحطاوي لهذا الأمر، ولم يأبه له، وأعاد إلى الشيخ السادات الخلعة التي خلعها عليه من قبل حينما تولى الافتاء، فاستاء السادات من هذا العمل، وعده إهانة كبرى له، واستمر

السيد الطحطاوي يقبح عمل الشيوخ، واعتزلهم في داره "وهم يبالغون في ذمه والحط منه لكونه لم يوافقهم على شهادة الزور، كما يقول الجبرتي، فكان عمل الطحطاوي حجة بالغة على نفاق الشيوخ ورياءهم.

خلا الجو لحساد السيد عمر مكرم والمؤتمرين به، ولكنهم في الواقع قد جنوا على أنفسهم وعلى مكانتهم ونفوذهم، فان المؤامرة التي دبروها قد أسقطت منزلتهم في نظر الجمهور والواعي، وفي نظر محمد علي باشا نفسه، فالجمهور رأى في عملهم معنى الغدر والخيانة، ومحمد علي رأى فيه الضعة وصغار النفس، فلم يبق لهم عنده ذلك الشأن الذي كان لهم من قبل، ولم يعد يعبأ برأيهم، وسقطت تلك الزعامة الشعبية التي كانت لها المكانة العظمى، والقول والفصل في تطور الحوادث مدى عشر سنوات متعاقبة، وزالت عنهم تلك الهيبة التي اكتسبوها بجهادهم وإخلاصهم وتضامنهم، وأضاعوا بتحاسدهم وتخاذلهم، ودالت دولتهم، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة، وحقت عليهم الآية الشريفة "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

وقد سجل عليهم الجبرتي رأيه فيهم بقوله: "إن الحامل لهم على ذلك كله الحظوظ النفسانية والحسد، مع أن السيد عمر كان ظلا ظليلا عليهم وعلى أهل البلد، يدافع ويرافع عنهم وعن غيرهم، ولم تقم لهم بعد خروجه من مصر راية، ولم يزالوا بعده في انحطاط وانخفاض"، وقال في موضع آخر: "وقد زالت هيبتهم ووقارهم من النفوس، وانهمكوا في الأمور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية".

ولعلنا من المقال يتضح لنا أن الازهر ليس طاهرًا كله، وليس شريفًا كله، ولكنه بكل صراحة ووضوح وواقعية ومصداقية، فيه الشريف والوضيع، فيه النفيس والخسيس، فيه العالي والواطي، فيه الرفيع والحقير، فيه الشجاع المقدام والمنبطح الجبان، فيه العزيز والذليل، فيه السامي والرقيع.!

شيوخ أغراهم بيانهم

بعض الخطباء والمتحدثين أو الكتاب والأدباء والمحررين، تأخذهم نشوة الخطاب، أو نشوة المداد، فيشطحون شطحة مدوية لا يغفرها الزمان، ولا تنساها الأيام، وقد نعذرهم في هذا فالقلب والعقل حينما ينفعلان لشيء ويتأثران به، يدفعان اللسان لينطق بالعظائم التي تفوق الحال والخيال.!

ولكن هذه الأهاويل التي نحاول أن نوجد فيها العذر لهؤلاء الشطاحين، قد نقبلها في أي شيء، لكننا لا يمكن أبدًا أن نغفر لهم شطحاتهم في الدين، لمقامات لا تكون إلا لله تعالى ولنبيه ولكتابه العظيم، فحينما يريد أحدهم أن ينافق رئيسًا أو ملكًا، ثم لايجد من التشبيهات والصفات والمواقف إلا ما اختص به نبينا الكريم ﷺ، فهذه جرأة وقحة وعمل منكر، بل تكون رزية وكبيرة، حينما يعطف المحدث أو الكاتب بحال النبوة السامية، ليفضل عليها حال رئيسه وتصرف ملكه. هذا تصرف الإنسان العادي الذي ليس بعالم ولا فقيه، ولم يضع يوما على رأسه عمامة الأزهر، ويح الشيوخ حينما تجرفهم ألسنتهم وأقلامهم لتحية الزعماء والحاكمين، فبعضهم قد يرفع زعيما أو ملكا أو رئيسًا لمرتبة النبوة والملائكة، إن ناله منه معروفًا أو شمله بعطاء، وبعضهم يكون صغير النفس تافه الفؤاد، لا يعرف معنى عزة العالم ولا كبرياء العلم، فيكاد قلبه يطير لو رأى أمامه ملكًا أو رئيسًا، حياه من بعيد أو مد إليه يده للسلام، فينسى الدنيا وما فيها أمام هذا الشرف العظيم والرتبة الرفيعة.

وبعض هؤلاء الشيوخ وخاصة من يتمتع بالبيان منهم، يسخر بيانه وبلاغته في مدح الحاكم الذي يحبه، أو يتوافق مع سياسته وفكره، أو من مد له يد الإحسان والعطاء، يبالغ في مدحه حتى ولو نطق بكلمات تخالف العقيدة، تكاد السماوات يتفطرن منها وتنشق الأرض وتخر الجبال لها هدًا.! لما رجع طه حسين من البعثة في فرنسا كرمّه ملك مصر فؤاد الأول بالجامع الأزهر، وفي خطبة الجمعة في حضور الملك وطه حسين، أراد خطيب (الجمعة) أن ينافق فيمدح ملك مصر بعد

إكرامه طه حسين (الكفيف) والاحتفاء به، فقال (لا عبس ولا تولّى لما جاءه الأعمى) ! أي أن الرسول العظيم صلوات الله وتسليماته عليه، قد عبس ولكن الملك ما عبس.!

وكان من بين الحاضرين الشيخ محمد شاكر – وكيل الأزهر في زمانه – رحمه الله – فوقف بعد الصلاة مخاطبًا لجموع الناس: أعيدوا جمعتكم ظهرًا فإن الخطيب كفر فأعادوها.

وعلى قدر ما كان في الأزهر علماء أحرار أعزة، أمثال الشيخ شاكر، كان هناك علماء منبطحون يتقنون فن التغريد للحاكم على حساب القرآن والدين بجرأة متناهية، أمثال هذا الخطيب المنافق.!

إن النفاق شيء قبيح، وأقبح منه أن يصدر من صاحب علم أو قلم، أو عمة من عمائم الدين، التي يفترض لها الاتزان والاستقامة والتقوى والاعتدال، والميل للحق على حساب كل شيء.

ومما يذكره التاريخ من مقولات السوء والنفاق، ما كتبه صاحب الرسالة الأديب الكبير أحمد حسن الزيات تعليقًا على الوحدة بين مصر وسوريا فقال: إنها خير وأبقى من الوحدة التي بناها محمد رسول الله ﷺ، ورغم صعوبة الموقف وصعوبة الظرف والزمان، الذي حكم فيه طاغية ما كان يسمح لأحد أن يعارضه أو ينكر عليه، أو يعرض حتى بحاشيته ومن ينافقونه، فإن ذلك كله لم يمنع أسدًا من أسود الأزهر، وللأزهر أسود وضباع.!! أن يقف لهذا الشطحة المنافقة ويردها رد الفرسان الغيورين على النبوة والدين، وقف الشيخ (محمود عبد الوهاب فايد) من علماء الأزهر الصادقين، ليضرب الزيات ضربات قاصمة، قلبت عليه تاريخه، وكشفت للدنيا نفاق مداده وتلون قلمه، ضربات أو كتابات وصفها أحمد حسين بأنها كانت كتابة من نار تحرق الكافرين، وتتحدى الرئيس نفسه. ودخل بها فايد تاريخ الأحرار ليكون واحدا من شجعان الحق.

لم يكن هجوم فايد على الزيات لجرأته على مقام النبوة وحده، وإنما لأنه كان قلمًا منافقًا يعشق التملق والتلون والمداهنة والتصفيق للحاكم، فنشر نصين منافقين، بين فيهما للجمهور معنى أن

[1] - والزيات محسوب على الأزهر فقد تلقى فيه علومه مدة ١٠ سنوات ونهل من أدب الاستاذ المرصفي قبل أن يتجه إلى كلية الأداب مع طه حسين

يكون الكاتب منافقًا، وأبشع صورة للكاتب حينما يكون متلونًا، يقول اليوم كلاما ثم لا يلبث إلا وينكره في الغد.

ففي أخريات أيام فاروق وقبل رحيله بشهرين تحديدًا في ٢٥ مايو ١٩٥٢ في مجلة الأزهر كتب الزيات يمدح فاروق مدحا عظيما فكان مما وصفه به قوله: " بعطف صاحب الجلالة فاروق، ناصر الإسلام، ومؤيد العروبة، وحامي الأزهر، أعز الله نصره، وجمل بالعلوم والآداب عصره.."

ثم يأتي في عام ١٩٦٠ وفي نفس المجلة كتب يقول: كان ملكا على مصر قبل ٢٣ يوليو، وكان آية من آيات إبليس في الجرأة على دين الله، وعلى حرم الناس، بلغ من جرأته على الله أنه كان –كما حدثني أحد بطانته– إذا اضطرته رسوم الملك أن يشهد صلاة الجمعة، خرج إليها من المضجع الحرام من غير غسل ولا وضوء، وأداها من غير فاتحة ولا تشهد، وكان يقول: إن أخوف ما أخافه أن يغلبني الضحك، وأنا أتابع الإمام في هذه الحركات العجيبة! وبلغ من جرأته على المحرمات أنه كان يغتصب الزوجة، ويقتل الزوج، ويسرق الدولة، ويسفه الحق، ويأخذ الرشا، ثم أملى له الغرور فتبجح وتوقح وطغى.."

وهكذا يتحول فاروق في نظر الزيات، وعلى سن قلمه من ناصر الإسلام وحامي الأزهر ومؤيد العروبة، إلى هذا العربيد الفاسق الفاجر، الذي يأتي الفواحش ويستهزئ بدين الله.

نعم إنه النفاق في أسمى صوره وأشد درجاته ومراحله.

إنك قد تستسيغ النفاق وتقبل صورته من أي كاتب، أما أن يكون النفاق ديدن الأديب صاحب الرسالة، فذلك وزر عظيم، وفزع صارخ تجأر منه النفوس إلى ربها.

وفي مجلس الشعب بتاريخ ٢٠ مارس ١٩٧٨ م، وأمام سؤال في جلسة الاستجواب للشيخ الشعراوي في قضية توفيق عويضة، والتي اتهم فيها السادات نفسه بالتستر على فساده لحمايته، وطُلب استجواب الشيخ الشعراوي كوزير للأوقاف، والمعني بالرد على هذا الأمر.. وقف «الشعراوي» يرد قائلا وقد خانه بيانه: والذي نفسي بيده لو كان لي من الأمر شيء، لحكمت لهذا

الرجل الذي رفعنا تلك الرفعة، وانتشلنا مما كنا فيه، إلى قمة من لا يسأل عما يفعل، مما أثار غضب بعض النواب، فصرخ الشيخ عاشور «نائب الإسكندرية»: مفيش حد فوق المساءلة، لنرع الله.. فرد الشعراوي: أنا أعرف بالله منك، وصاح الشيخ صلاح أبو إسماعيل «نائب الجيزة»: «لقد كذبت يا رجل، لقد كدت تكفر، فاستغفر الله، فهذه الصفات لا تمنح لبشر إنما اختص بها المولى سبحانه»

ولم يكن للشيخ كشك أن يفوت المناسبة، وأثناء خطبة الجمعة قال: ماذا تقول لربك غدا يا شيخ شعراوي، لما وقفت في مجلس الشعب، وقلت: لو كان بيدي شيء من الأمر لرفعت هذا الحاكم إلى قمة من لا يسأل عما يفعل.. وتوجه إلى الشعراوي بسؤال: من الذي لا يسأل عما يفعل يا شعراوي؟، فرد المصلون بعلو صوتهم على صوته: «الله، الله».

ولعل هذه السقطة، نادرة في حياة الشيخ الشعراوي الذي أحبته الملايين، وزلة سحيقة ليس لدي أمامها شك، أنه قد تاب منها واستغفر ربه على وزرها.

ومما يذكر لخالد محمد خالد رحمه الله أيام ما كان مرتميا في أحضان اليسار، وحينما مات الطاغية الشيوعي ستالين، أن كتب مقالة يرثيه فيها تحت عنوان: (طبت حيًا وميتا يا رفيق) وهي مقولة الصديق ﷺ لرسولنا الكريمﷺ حينما سعى إلى جثمانه يقبله، ولكن خالد أسرع فيما أسرع من توبته عما كان عليه، وكان مما تاب عنه واستغفر الله تعالى فيه، هذا العنوان القاصم، الذي رقى به طاغية من طغاة العالم فقال عنه: "ما كان ينبغي لي أن أودع بها ستالين أو غيره من الناس فاللهم غفرانك"

وهكذا يقع بعض الشيوخ أحيانًا، فريسة لإغواء النفس ولهفة المديح، متأثرين بغلبة الهوى، فيغريهم بيانهم بكبائر الأقوال التي يندمون عليها حينما يفيقون من غيبوبتهم.

اجلدوا الزنكلونيين

يفرح المرء كثيرًا حينما يرى حاكمًا قويًا يطبق الشرع ويحافظ على القانون، ويُنفذُ القضاء، ويقف بحزم في وجه الفساد والمحسوبية، ويبطش بكل من يحاول التلاعب بأحكام العدالة.

وكم تكون الصورة محيرة ومقلوبة، حينما يكون الفساد في صف العلماء وقضاة الشريعة، الذين يفترض لهم أن يكونوا حماة الحق والعدل، بينما يأتي الحاكم ليرد فسادهم وتآمرهم على حكم القضاء وتحايلهم على شرع الله.!

حدث في عهد السلطان الغوري حينما ضبط أحد رجال القضاء، في قضية أخلاقية واعترف بممارسة الفحشاء، وشاعت القضية وصارت حديث الناس، وحكم على الرجل بالرجم، ووافق قاضي القضاة على هذا الحكم، لكن أحد المشايخ وكان صديقا للمتهم، طلب من المتهم أن يعدل عن اعترافه، ثم ذهب إلى القضاة والعلماء، يستفتيهم في عدول المتهم عن اعترافه، فأفتوا بأنه يجوز لع العدول عن الاعتراف، وأنه ساعتها لا يعاقب.!

وكان الشيخ الذي تدخل لنجدة صديقة هو السيخ شمس الدين الزنكلوني، وعلم السلطان الغوري بما حدث فغضب غضبًا شديدًا، واعتبر الأمر تحايلا على الشرع، ليفلت المتهم من العقوبة، وقال: كيف يباح له العدول عن اعترافه، وهو الذي اعترف بجريمته وسجل اعترافه بيده؟!

وعقد السلطان مجلسًا للمحاكمة، وجمع في المجلس قضاة الشرع الأربعة وكبار العلماء، وناقشهم في المسألة، فأصروا جميعًا على أن الزاني له حق الرجوع عن اعترافه، وحينئذ لا يقام عليه الحد، وأن هذا هو رأي الشرع، ولكن الغوري لم يعجبه ذلك، وثار عليهم ثورة عارمة، وأخذ يُسفههم ويوبخهم، وأعلن أنه سيشنق المتهم رغم أنف القضاة، وأنه ولي الأمر الشرعي.

وفعلا أمر بشنق المتهم وصلبه، وأن يكون الشنق على باب القاضي الذي أقر عدول المتهم نكاية فيه، أما الشيخ الزنكلوني فقد أمر السلطان الغوري أن يُجلد هو وولده ألف عصا، فضُربا ولم يتحملا فسقطا ميتين.

ولم يقف غضب السلطان عند هذا الحد، فقد أمر بعزل القضاة الأربعة من مناصبهم، وعلى رأسهم شيخ الإسلام برهان الدين بن أبي شريف، وظلت البلاد بغير قضاة مدة خمس سنوات حتى اختار قضاة جددًا.

وسمعت القصة في أرجاء البلاد، وكانت نبأ عظيما في الانتصار للعدالة، وحدثا مرعبا لمن حاول التحايل على الشريعة.

ومن المفارقات أن السلطان الغوري قتل بعد ذلك بسنتين في موقعة مرج دابق، ولما قتل قال الناس يومها: هذا بذنب الشيخ برهان الدين.

وأتعجب من هذا الانتقام الذي طول لعامين، وهو يذكرني بنصارى مصر حينما اغتيل السادات فقالوا: من أجل ما فعله بالبابا شنودة، ولكن مهما قيل من تبرير ولوم، تبقى غيرة الغوري المحمودة على الدين واحترامه للشرع وتطبيقه للعدالة، قصة لا تتناساها الأجيال رغم ما كان فيها من شدة وعنف وإفراط في العقاب.

وبعد الفتح العثماني لمصر، كان كثير من نساء المماليك ثريات، مما دفع كثير من العثمانيين بالزواج منهن حتى ولو كان في الزواج شبهة أو مخالفة شرعية، ويدلل على ذلك ما يحكيه بن إياس عن قيام قائد عثماني بالزواج من زوجة أحد المماليك، قبل أن تنقضي عدتها على يد أحد نواب شيوخ الشافعية بمصر، ولما وصل الأمر إلى قاضي القضاة الشافعية، أمر بالطلاق ثم قام بمعاقبة المأذون على النحو الذي يذكره بن إياس حيث قال:

"ومن الحوادث أن شخصًا من النواب الشافعية قيل عنه: إنه زوج امرأة لشخص من العثمانية، فظهر أنها لم تكمل انقضاء عدة زوجها، فلما رفع أمرها إلي قاضي العثمانية، أحضر القاضي الشافعي ولم يقبل له عذرًا، وضربه ضربًا مبرحًا وكشف رأسه، وألبسه عليها كرشًا من كروش البقر بروثه، وأركبه على حمار مقلوب وأشهره في القاهرة."

وشاء الله أن تأتي هذه الحادثة على لسان ابن إياس نفسه، الذي شوه تاريخ العثمانيين، ليحكي هذه القصة التي تؤكد وتظهر مدى تعصبهم للدين وانصياعهم للشريعة.

منابر الكراهية

حينما يعتلي المنابر داعية أو عالم دين يدعو الناس للخير والبر والتدين، وهو بعد لا تزال نفسه غارقة في وحل الأمراض والدنايا، متسربلة بالأحقاد والخطايا والأهواء والمفاسد والسقطات.. فإن هذا شر عظيم على الأمة، حينما يتصدر مواقع الفضيلة فيها، أناس لا شرف ولا عزم لهم.

ولعل الداعية حينما يكون عاصيًا أراه في نظري أهون بكثير من داعية أو عالم يتبع هواه، ويركل الحق في سبيل ظنونه التي غلبت على عقله، ويخاصم الصدق حتى ينتصر لنفسه، ويرضي غله وحقده وهواه وغيه.

في بلادنا رأيت داعية محموما، لا يمكن أبدا وأنت تستمع لكلامه، وتنظر في وجهه إلا وترى الشرر والغل منبعثا من بين ثناياه، فلا يمكن أبدا أن تحكم بأنه من أئمة الهدى، وداعية لطريق السلف الصالح.. فالرجل يدعو للحقد، وينشر الريب ويعظم الظلم.!

لا أعرف لماذا لا أجد في قلبي عطفا عليه، لو سمعت أنه مات مقتولا، أو صدمه قطار، أو هجم عليه قطاع طرق فبقروا بطنه وقطعوا لسانه، حتى لا يقوم في بلادنا هذا اللسان الذي يعطي للدين صورة الحقد والغل، وينشر باسمه ركائز البغضاء والفتنة في المجتمع.

الرجل مريض نفسي موتور ومعقد، ولا تجد في فراستك جهدا لتكتشف ذلك بنفسك، وأنت تستمع لحديثه وطريقة إلقائه.

ما أحوج الداعية أن يدرك أن التجرد من الهوى شهادة ودُربة لا يصعد إلى المنابر ويتصدر الحديث باسم الدين حتى يجتازها.. إن كثيرين من أئمة المساجد والدعاة، لم ينالوا قسطهم من التدريب الروحي والتهذيب العاطفي، الذي يتخلصوا به من أمراض نفوسهم فلا يخرجوا للناس إلا وهم على المحجة البيضاء.

ما معنى أن يكون هناك داعية يحيك المؤامرات ضد خصومه، وينزل عن منصة الشرف لشارك في اغتيال مخالفيه؟!

وما معنى أن يشي داعية بمن يخالفه أو يدس له مقالات سوء لدى الأنظمة ليطيح بوجوده؟!

إن افتقاد الداعية لمعالم التربية كارثة كبرى تصيب الأمة في مقتل.

كان هناك جماعة من المشايخ والعلماء قد نظموا عريضة ضد الشيخ الألباني زعموا فيها أنه يدعوا للوهابية ويقوم بدعوة تفتن المسلمين وتشوش عليهم، وقاموا بجمع التوقيعات من الناس ورفعوها إلى مفتي الشام، فأحالها المفتي إلى مدير الشرطة، الذي استدعاه وناقشه في الأمر وانتهت الشكوى على غير نتيجة.

هكذا فعل شيوخ الدين وعلمائه، الذين يقرؤون كتاب الله ويحثون الأمة على العفو والبر والتسامح والخير، فعلوا ذلك في رجل يدعو للكتاب والسنة، ويعلم الناس هدي محمدﷺ.

وذات يوم سأله أحد الناس عن حديث في حكم الصيام، فأوضح له الشيخ ضعف الحديث، وكان قد سمعه من أحد الخطباء، فذهب الرجل بدوره إلى الخطيب وبين له ضعف الحديث، وأشار له في المرجع المثبت فيه ذلك، وكان الأولى بهذا الشيخ أن يقر بالحق ويعترف بالخطأ، ويقول لمن أعلمه جزاك الله خيرًا، إلا أنه كان من أصحاب الأهواء، لقد ركب هواه واستشاط غضبًا، وأعلن ثورته العارمة، وقام في خطبته التالية وهاجم السلفية وأنصارها واتهم الشيخ وأصحابه بالضلال، وحذر الناس من القرب منهم، وأن يحفظوا أبناءهم من الامتثال لهم.

هكذا يكون الكبر العارم حينما يستبد بالنفس، ليجعل منها حربًا على الحق وكفرا بالحقيقة.!

وما أروع الدعاء النبوي (اللهم أرنا الحق حقا) والذي لم يكتف بهذه الجملة، وإنما أتبعها بقوله: (وارزقنا اتباعه) نعم فاتباع الحق رزق عظيم لا يناله إلا من ﷺ، ورحم الله ابن عباس حينما قال: شر إله عبد في الأرض الهوى.!

كان شيخنا الدكتور (محمود عمارة) رحمه الله يؤكد دومًا أن معركة الداعية ليست مع الأشخاص والمذنبين والعصاة، وإنما المعركة القائمة والصراع الحقيقي بين الداعية والمعصية.. وهي رسالة واضحة لأناس محسوبون على الدعوة، ويحترفون تحويل ميدان المعركة فيها مع المسيء وليس مع السية!

قال تعالى: (ادفع بالتي هي أحسن السيئة)

إن الله تعالى لم يقل: المسيء، وإنما قال السيئة، وهو المعنى الذي يغيب عن كثير من المتشنجين ممن ينتمون لقوافل الدعاة، فيهدمون أكثر مما يبنون.!

وهو نفس الحال والحوار بين أهل العلم وطلبته، حينما يشتد بينهما الحوار فيهملون الحقيقة، وتتحول المعركة إلى عداء شخصي، كل منهم يسيء إلى صاحبه، ويسبه ويحط من قدره ويُهينه، وما هكذا كان سلوك العلماء الأفاضل، الذين كانوا يطلبون الحقيقة ويجعلونها غايتهم، بعيدًا عن أهواء النفس وأمراض القلب.

جاء في معجم الأدباء أن الطبري رحمه الله "كان يحضر مجالس داود بن علي الظاهري ويأخذ عنه ويناقشه في العلم، حتى ضاق أحد أصحاب داود بالطبري، وكلمه كلاما فظا، فقام الطبري من المجلس، وبدأ في تصنيف كتاب للرد على داود ومناقشة مذهبه، وأخرج منه مائة ورقة، فلما مات داوود قطع الطبري كتابه، فقام محمد بن داود للرد على أبي جعفر، وتعسف عليه، وأخذ في سب الطبري، إلى أن جمعتهما المصادفة في منزل، فلما عرفه الطبري، رحب به وأخذ يُثني على أبيه ويمدحه، ويصفه بالصفات الكريمة، مما حمل ابن داود على قطع كتابه"

وفي الموقف من العبر ما يلي: -

١- أن ابن جرير كان يناقش الظاهري مناقشة من يريد الوصل للحق، حتى ولو كان ذلك النقاش يضايق أصحابه فيبغضونه بسببه.

٢- لم يرد الإساءة على من أساء إليه، لأن المآرب الشخصية والانتصار للنفس، لم تكن غرضه المنشود.

٣- قام الطبري بالرد الأمثل الذي يليق بالعلماء ذوي الأخلاق، حينما ألف الرد العلمي في كتاب يشرح فيه وجهة نظره أمام خصمه، والذي أثبت أنه يسير في طريق العلم وحده ولا يطلب غيره شيئا آخر يرضي نفسه أو ينتصر لها.

٤- مهما كان من الشقاق والخلاف والمعارك تبقى هناك نزاهة وسماحة، نستطيع بها أن نداوي قلوب من يحنقون علينا ويبغضوننا تظل الكلمة الطيبة باقية الأثر شديدة المفعول تنزل كالماء

البارد على النفوس، فتطفئ لهبها المتوقد، وذلك حينما امتدح الطبري والد المتشنج والذي دفعه الثأر أن يكيد للطبري ويكيل له التهم الشناع.!

٥- الخلاف في الرأي لا يعني أنك عدوي الذي أكيد له، وأتحين هلاكه والتآمر عليه، فليس هذا مقبولا بين أهل العلم، الذي يفترض أن يكونوا أقرب الناس من الله تعالى، وهو ما ساق بالطبري أن يمدح والده ويُثني عليه، وهو الذي كان يخالفه بالأمس.!

دستور أخلاق العلماء

إن حبي للتراجم وولعي بها، ساقني لتعقب مصنفاتها، وكل ما سطره العلماء والدعاة والأدباء والمفكرون والعباقرة والموهوبون عن حياتهم الشخصية، وسيرتهم الذاتية، مسلمين وغير مسلمين، قريبين وبعيدين، عرب وأجانب، سلف وخلف.

حتى اهتديت مؤخرًا لكتاب (لطائف المنن والأخلاق) لشيخ الإسلام وإمام الزمان سيدي (عبد الوهاب الشعراني) والذي كان ترجمة لحياته، ورصدًا لأخلاقه وصفاته، وشرحًا وافيًا ومبينًا لحاله، وتعريفًا بنعمة الله ومنته عليه.!

وقد عمد الرجل في تأليفه لهذا المصنف إلى جملة أهداف، كان أهمها أن يقتدي من معه بخلقه وصفاته، فقد قال: (ليقتدي بي إخواني فيها، فيتخلقوا بها) ولكني في الحقيقة حينما طالعت السيرة وما ذكره من حاله، لم أجده في نظري وعقلي من كتب الترجمة والسيرة الذاتية والتعريف بالكاتب، بقدر ما وجدته دستورًا ومنهجا للعلماء والدعاة والعارفين وسالكي درب الحقيقة والشريعة، يبين لهم الصورة المثلى، والخلق الأسمى الذي يكونون عليه، ويظهرون به ويتخلقون بسجاياه.

وإنك لتعلم جليًا أن أسوأ ما يضر العالم تعلق قلبه بالدنيا، وطمعه في غرورها وسعيه إلى مناصبها، والجري وراء مفاتنها، وهي أحوال تتنافى مع مقام العلم وخلق العلماء، يمكن لك كعالم أن تكون غنيا ويرزقك الله من مباهج الدنيا، لكنك لم تسع إليها، ولم تدخل هي قلبك، ولا

يضر هنا مثول الغنى والمال بين يديك، ما دام قلبك عامر بالقناعة، مليء بالرضا محصن بغنى النفس.

كتاب عظيم النفع، تقف أمام كل كلمة فيه، وتتأمل كل جملة كتبت في سطوره، فلا أخفي عليك أن أخلاق الرجل بهرتني وسجاياه أعجبتني، فقد كانت حياته وكان عليه فيها من جميل الأخلاق، حياة تشبه حياة الأنبياء، ولم لا وهو وريثهم، فالعلماء ورثة الانبياء، لكن أكثر ما شد انتباهي في أخلاق الامام الشعراني، من كريم أخلاقه وجميل مزاياه، هو صفة القناعة الشديدة، والإباء الظاهر، والعفة التي تحلت بها نفسه، ولعلها أكثر وأبرز ما جذب اهتمامي ولفت نظري، لكثرة ما نرى حولنا من علماء رخيصوا النفس، ضئيلوا الكرامة، يبيعون دينهم بدنياه.

لقد ذكر الامام الجليل كثيرًا من شمم نفسه ومناقبها في سطور متفرقة وفصول متباينة، حتى لا تظن أنها كانت مجمعة أو مفصلة، فقد أجهدت نفسي في ترتيبها والتنقيب عنها، والبحث عن شواهدها، وقد رأيت من الخير العميم أن أجمعها للقارئ، حتى تكون في المقام الأول، رسالة لطلاب الأخلاق من علماء الزمان، الذين أهانوا علمهم، حينما جعلوه طريقا لنيل الدنيا وطلب المناصب، والسعي بلعابهم خلف غرورها الفاني، حتى أضاعوا هيبة العلم، وأفسدوا على الناس دينهم، وأحنوا للباطل هاماتهم وعمائمهم.

انظر ما كتب الشعراني وحدثنا به عن نفسه:

-ثم بلوغي مقام الزهد، إلى أن صار عندي الذهب والتراب على حد سواء من غير ترجيح، ثم ذكرت أني بلغت مقام الزهد إلى أنه لو أمطرت السماء ذهبًا وصار الناس ينتهبونه، لم أجد لي داعية إلى أخذ شيء منه إلا لأمر مشروع.

- ولو أنني مررت على تلال الذهب والفضة، من غير مزاحم عليها من أبناء الدنيا، ولا حساب عليها في العقبى، لم أتناول منها دينارًا واحدًا إلا لضرورة شرعية، ولو أن البغلة دخلت داري في الليل محملة ذهبًا ونحوه، أخرجتها من داري بذهبها خوفًا من طول الحساب يوم القيامة، ثم إنه

لو كان عندي ما شاء الله من الذهب، فسرقه إنسان، أو أخذه من بين يدي وأنا أنظره لا أتبعه ولا بوكيلي هوانا بالدنيا.

- ثم كراهيتي للأكل من شيء أُعطيته من الناس على أني من الصوفية، لأنه أكل بالدين.

- ثم فرحي بالفقر إذا أقبل.!

- ثم عدم طلبي لشيء من مناصب الدنيا منذ وعيت على نفسي.

- ثم عدم شهوة نفسي لشيء من المطاعم والملابس إذا دخلت سوق الطعام واللباس.

- ثم ردي كل شيء يأتيني من الولاة، وإن قبلته رميته بين الحاضرين ولا آخذ منه شيئا.

- ثم عدم خوفي من أحد من الولاة لأنهم لا يُسَلطون إلا على من يحب الدنيا غالبًا.

- ثم كراهتي للأكل من الصدقات الخاصة دون العامة، كالأوقاف على فقراء المسلمين.

- ثم إلهامي إلى أني أطلب الحوائج من أبوابها دون غيرها، ثم قضاء الحوائج من الحكام مع عدم الوقوف فيما ينقص ديني بسبب ذلك من تزكية نفسي على ألسنة الوسائط أوغيرها.

- ثم عدم طلبي للثواب على شيء من أعمالي إلا من باب الفضل والمنة دون الاستحقاق.

- ثم عدم طلب نفسي مقامًا عند الخلق دون الله سبحانه وتعالى.

- وعدم احتياجي لقبولي مرتبًا من بيت مال المسلمين أو مسموحا ولو سألوني في ذلك، ثم حمايتي من الأكل من هدايا الظلمة وأعوانهم.

- ثم إنصافي لكل من عاملني في بيع أو شراء، وإذا استأجر مني شخص دولابًا أو رزقة أو مركبًا ولم ينتفع بها، لا آخذ منه أجرة ولو سألني هو فيها رددتها عليه.

- ثم حمايتي من الأكل من طعام من شفعت عنده أو شفعت له، أو قبولي هدية من أحدهما.

- ثم عدم بخلي بشيء دخل في يدي من الدنيا على من يستحقه سواء النقود وغيرها.

- ثم كراهتي للأكل في ضيافة الأوقاف التي تحت نظري أو نظر غيري، وعدم استقرارها في جوفي إذا أكلت منها ولو سهوًا.

- نعمة كراهتي للأكل من صدقة أو هدية علمت أن في بلد المتصدق أو المُهدي من هو أحوج إلى ذلك مني.

- ثم عدم قبولي شيئًا أعطاه لي الناظر من وقف المرتب.

- ثم عدم التفات نفسي إلى شيء من الدنيا إذا ضاع مني، سواء قل أو كثر إلا أن يكون لغيري.

- ثم عدم مزاحمتي لشيء فيه رياسة دنيوية أو يؤول إلى الدنيا من جاه أو نشر أو صيت.

- ثم عدم ترددي إلى بيوت الحكام لغير ضرورة شرعية.

- ثم عدم تكدري على شيء فاتني من الدنيا أو ممن صدها عني، ثم انشراح صدري إذا أصبحت وأمسيت وليس عندي شيء من الدنيا.

- ثم عدم أكلي من طعام من يعتقد في الصلاح خوفا من الأكل بديني.

- ثم كراهتي لقبول شيء من هدايا العمال والولاة، وعدم مزاحمتي على صحبة أحد من الولاة.

- ثم صحة توجهي إلى الله تعالى في دفع الدنيا عني.

وأكتفي هنا بهذا القدر من قناعة الامام الشعراني وإباء نفسه وعزة ذاته، ولو قلبنا في صفحات الكتاب، لوجدنا كثيرا من الشواهد التي تدعم ذلك وتؤيده، لتكون قدوة لمن بعده من العلماء والعارفين.

حماقة الحرفيين

ليس معنى أنك عدوي أن أتنكر لك ولا أقبل وجودك، ولا أطيق رؤيتك، أو ذكر اسمك، هناك قوم متوغلون عميقون في خصومتهم، أو إن شئت فقل: فاجرون في عدائهم، فلو مررت أنت وحييت عدوي أو ابتسمت في وجهه، فأنت أيضًا عدوي، ولا يمكن قبول هذه الابتسامة، إلا أن تكون تأشيرة الدخول والانضمام لصفوف الأعداء، فهم لا يقبلون أبدًا أي مهادنة أو أي مسامحة، أو أي شكل من أشكال الهدوء والملاينة، فالعدو هو العدو، ولا شيء آخر غير العدو.!

ولعل هذا التصور المأفون الضيق الجاهل.. سريع الاتهام والظلم والتخوين، وسريع في الأخذ بالشبهة، وأصحاب هذا الطريق لا يقبلون ما يسمى بالحوار، ومحاولات التقارب واللين والتفاهم.

بل إن مجرد الإقدام على شيء من هذه الصور والمفاهيم، يعدونه خيانة وعمالة وذنبًا لا يغتفر.

ولعل في هذه الصور مسحة من خصام الأطفال، أو خصام الأنداد مع بعضهم البعض، لكن خصومة الفكر والعقائد، والعلاقة بين القوي والضعيف، والكبير والصغير، لا يمكن أبدًا أن تكون بهذا الشكل الطفولي، فهناك حوار وأخذ ورد واستماع وتفهم، ولقاء وعرض، وقبول وتأن، وشرح وتعريف وتأمل وصبر ومحايلة، حتى ينال المرء مأربه في هدوء، ويحصل أكبر قدر من المكاسب من عدوه، أو على الأقل يأمن جانبه أو يتعرف على مقاصده وطبائعه وأسلوبه، فيتلافى كيده ويحصن نفسه من تدبيره.

لقد عاد الإمام (محمد عبده) إلى مصر بعد أن ترك الجهاد السياسي مع أستاذه (جمال الدين الأفغاني) وحمل نفسه على الالتزام بالثقافة والتربية، وهو ما كان أميل لقلبه من العمل بالسياسة.

ومما جاء عنه.. أنه وضع في خطط إصلاحه وأهدافه، أن يتعاون مع الانجليز، ويتفاهم معهم لينال منهم بأقصى ما يستطيع إعانته فيما ينشد من إصلاح داخلي تثقيفي، وهو المنهج الذي لم يكن يُعجب مصطفى كامل، وكان بسببه في خصومة شديدة مع الإمام.

بل هي الشبهة التي ذكرها يومًا شاب سلفي جرى بيني وبينه خلاف فكري حول شخصية الإمام، ولوح بهذه الصداقة بينه وبين كرومر، والتي يراها سبة عظيمة وخيانة فاجرة، وما هي إلا حكمة وحصافة وظروفا فرضتها الأحداث، من أجل الأمة وإنفاذ مصالحها، ولكن هكذا ينظرون وهكذا يؤولون، نعم لقد أفاد (محمد عبده) كثيرًا من الإنجليز، ولكنهم هم ظنوا أنهم أفادوا منه، لكن كل ما أفاده كان في سبيل بلاده ووطنه.!

رحم الله الكاتب الكبير محمد جلال كشك، حينما صور علماء الأزهر أيام الحملة الفرنسية الذين انضموا لديوان نابليون بأنهم كانوا يقومون بدور المقاومة السلبية في هذا الديوان، ليعرقلوا ماشاؤوا أن يعرقلوا من غايات الطاغية المحتل.!

ولاشك أن السطحيين يرونهم ممالئين أو خونة أو عملاء، أو أصحاب دنيا باعوا وطنهم وقضيتهم، وساعدوا المحتل في نيل مآربه، ولكن الحقيقة التي ذكرها الكاتب، وما كان هؤلاء العلماء ومن بعدهم الإمام محمد عبده، إلا منطقيين مع أنفسهم وهم يتعاملون مع الاحتلال كأمر واقع يكيفون حالهم معه، ويحاولون التكسب منه ما استطاعوا لمصلحة الوطن قدر الإمكان، وهو ما يجهله بسطاء العقول الذين يأخذون بالشبهة، ويسارعون للاتهام والتخوين.!

وهو نفس المشهد الذي وقف بمنطقة يوما أحد الشباب السلفيين، وما أكثر ما نعاني من السلفيين ضيقو العقول، ومحدودي الفهم والوعي والتأمل، وكان يصرخ بأعلى صوته منددًا بحسن البنا مشبهًا إياه بأنه كان عبدًا للملوك، منافقًا لهم، يخطب ودهم على حساب دينه، وقال: ألم يقترح يومًا على الملك فاروق أن يكون خليفة للمسلمين؟ وينادي بهذا الأمر بعد سقوط الخلافة، ورغبه في هذه الدعوة، ثم عقب مستهينا: أهذا هو الإمام المفدى والداعية الشهيد؟!

ولا شك أن هناك أعين لا تبصر إلا نصف الكوب الفارغ، ولا تقتنع أبدًا بمشاهد الجمال، ومن ثم تحاول أن ترى كل شيء حولها من جنس القتامة العارمة، حتى ترتوي من دياجير الظلام، وهو بالضبط ما ينطبق على هذه العقول التي تنتسب للتيارات السلفية المتشددة، ونقول لهذا المُنكر: ماضر حسن البنا لو قبل فاروق دعوته، ودعا لنفسه بالخلافة لنفسه، وصار فعلا خليفة للمسلمين وبايعه الناس على ذلك؟!

أليس في هذا ضربة قاصمة للاستعمار الذي دأب دهورًا على وأد هذه الخلافة وتحطيم ملكها وسلطانها ونفوذها بين المسلمين؟! أي مكسب عظيم إذن كان الإسلام سيجنيه لو تحققت تلك الرغبة، وتمثل هذا الطموح على أرض الواقع؟!

ومهما تسأل ومهما تعلم، فلن يفهم هؤلاء شيئًا، لا لأن عقولهم تتأبى على الفهم، ولكن لأن قلوبهم مغلقة.!

عرضت إحدى المجلات التي تعنى بأخبار الفنانين والفنانات والموضة والأزياء ولاعبي الكرة من الشيخ يوسف القرضاوي أن يكتب فيها مقالا متتابعا، وسأل الشيخ واستشار تلاميذه وأصدقاءه في هذا الأمر، فإذا بهم جميعًا يتنكرون لهذا العمل، وقالوا كيف تكتب في مثل تلك المجلات المنحلة؟! لكن الشيخ كان أبصر ممن سألهم، وأبعد نظرًا ورؤية ممن استشارهم، فقال: إن هذه النوعية من الصحف والمجلات، هي أولى ما نكتب ونطرح فيها أفكارنا، لأن لها جمهورًا لا يقترب أبدًا من الكتابات الدينية، فما عسانا أن نذهب إليهم نحن ونقدم لهم تعاليم الدين ومعالم الهداية.؟!

إن مأساتنا اليوم أننا نفتقد الحكمة والبصر والرؤية البعيدة، والحنكة في التعامل مع كثير من الأزمات والمشكلات.

مأساتنا في الحرفيين النصوصيين القشوريين الذين لا يرون أبعد من أنوفهم.

في كتابه علل وأدوية يقول الشيخ الغزالي رحمه الله عن الإمام محمد عبده، والذي كان يصفه بالرجل الضخم:

" قرأت كتابه عن الإسلام والعلم الذي رد به على وزير خارجية فرنسا، فرأيت رجلا عليما بالإسلام وتاريخه وفضله على الحضارة الإنسانية عليما في الوقت نفسه بالنصرانية والهندوكية وتاريخها وما يكتنفه من غيوم"

ثم يقول: " وقد ألف الكتاب في ليلة واحدة لشدة غضبه من الهجوم الفرنسي، وملأه بالوثائق التي تشرف الحق وتخزي الباطل، من من علماء المسلمين في عهده تحرك بهذه العاطفة ورد بهذا الرسوخ؟!"

همة عظيمة في الدعوة إلى الله تعالى، وغيرة مدوية على الإسلام ساقت الرجل الكبير الذي يأكله قلبه على دينه، أن لا يبرح القلم حتى ينهي هذا السفر، الذي يرد للإسلام مكانته ويهوي بشبهات خصمه في مهاوي الردى.

ولعل هذا المكرمة العظيمة لهذا الإمام الجليل الذي نصر الإسلام بهذا السفر، محمدة يحاول كثير من المثقفين الدينيين أن يخوفوها، لأنها تضاف إلى حساب الرجل وتهدم ما بنوه عنه من تصورات خاطئة، تخالف مفاهيمهم التي توافق أهواءهم.

ولعل هذه الغيرة على دين الله، هي نفس ما كانت في قلب أستاذة جمال الدين، الذي اتهم كذلك بأبشع ما اتهم به الإمام محمد عبده.

يقول أحمد أمين في كتابه زعماء الإصلاح:

"إن حياة السيد مملوءة بالدعوة الحارة إلى الدين، وإلى التوحيد، في كتاباته في الرد على الدهريين، وفي العروة الوثقى وفي مجالسه الخاصة.. يذكر أحدهم أنه سمع رجلا كبيرا تكلم في حق النبي ﷺ فأمر السيد من معه من الأفغان بضربه، فضربوه حتى خرج يزحف.

ويقول أمين: "لا يمكن أن تصدر هذه الكلمات وهذه الأقوال وهذه الغيرة من ملحد، إلا أن يكون قد بلغ الغاية في التصنع والنفاق، ولم يكن عيب جمال الدين نفاقه، وإنما كان عيبه إفراط في صراحته وعدم استطاعته كتمان ما يعتقد"

حقد العلماء؟!

عجباً وهل يحقد العلماء؟!

وهل يعرف أمثالهم معنى الحقد؟!

وهل يُبقى العلم في نفوسهم ما يدركون به هذه الكلمة ويلوكون به مباذلها؟!

أيمكن أن يكون العلماء الذين شرفهم الله بحمل هذا العلم وبيانه للناس، على هذا القدر من ضحالة الطبع ودناءة النفس، تماماً كما يبتلى به غيرهم من البشر العاديين؟!

لقد كرم الله العلم وأهله.. فكيف يصدر من بعضهم مثل هذا العيب، وكيف تُقبل نفسه على هذه الرذائل العفنة.!

روى الراغب الأصفهاني في "محاضرات الأدباء": "هلاك العلماء بحسدهم"

وقيل: يغار العلماء من بعضهم كغيرة التيوس في حظائرها..

إنها التربية إذن.. التي لو أوتيت بدونها علم أهل الأرض جميعًا ما نفعك بشيء، لأنها برهان الإيمان وطريق الخشية والورع، وسلامة النفس من الآفات والأدواء..

إن العلم آلةٌ ونعمة، يهبها الله لمن يشاء، وأنت بالخيار إما أن تستخدمه فيما يغضب الله أو تسير بها في طاعته ورضاه، لقد أنعم عليك بالذكاء ووفقك في التحصيل والتأمل والتذكر، لكن نفسك النزاعة للهوى أبت إلا أن تكفر بما وهبها الله سبحانه، فكان العلم عمادها في الضلالة ووجهتها إلى الإفك، وسنادها في طريق الباطل.

إن أئمتنا الكرام كان يحب بعضهم بعضا.. وما كانوا يعرفون هذه المقابح، لأن قلوبهم كانت طاهرة سليمة لم تضربها هذه الأوحال بأمراضها المزمنة، وكنت منذ صغري أحفظ قول الشافعي في أبي حنيفة وأتغنى به:

لقد زان البلادَ ومن عليها ** إمَامُ المسْلِمينَ أَبُو حَنِيفة

بأحكامِ وآثارِ وفقهٍ ** كآيَاتِ الزَّبُورِ عَلَى الصَّحِيفَة

فما بالمشرقين له نظيرٌ ولا بالمغربين ولا بكوفة**

فَرَحْمَةُ رَبِّنا أبداً عَلَيْهِ مَدَى الأَيَّامِ مَا قُرِئَتْ صَحِيفة**

وكان يقول: العلماء في الفقه عيال على أبي حنيفة.

وكان سفيان الثوري يقول: كان أبو حنيفة أفقه أهل الأرض في زمانه.

وقيل للإمام مالك بن أنس: (هل رأيت أبا حنيفة؟) قال: نعم، رأيت رجلًا لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبًا، لقام بحجته.

وقال الشافعي في مالك: إذا ذكر العلماء فمالك النجم، وقال في ابن حنبل: خرجت من بغداد فما خلّفت بها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أفقَهَ من ابن حنبل.

وذكر فيه شعرا فقال:

أضحى ابن حنبل حجَّةً مبرورةً ** وبِحُبِّ أحمدَ يُعرَفُ المتنسِّكُ

وإذا رأيت لأحمد متنقِّصاً ** فاعلم بأنَّ سُتورَهُ ستُهَتَّكُ

أما أحمد بن حنبل فقال في الشافعي: ما مس أحد محبرة ولا قلماً إلا وللشافعي في عنقه منة، وقال: إن الله يقيض للناس في رأس كل مئة من يعلّمهم السنن، وينفي عن رسول الله ﷺ الكذب، قال: فنظرنا فإذا في رأس المئة عمر بن عبد العزيز، وفي رأس المئتين الشافعي، وروى عنه أنه مكث أربعين سنة ما بات ليلة إلا ويدعو فيها للشافعي، وقال الإمام إسحاق بن راهويه: لقيني أحمد بن حنبل بمكة، فقال: تعال حتى أريك رجلاً لم تر عيناك مثله، قال: فأقامني على الشافعي.

وقال في مالك: لقد حُرِمتُ لقاء مالك فعوَّضني الله عز وجل عنه سفيان بن عيينة.

هكذا كان الأطهار من سلفنا الأول، آية في الصفاء والنقاء وسلامة الصدر، يحب بعضهم بعضاُ، ويثني بعضهم على بعض، بقلوب أشد صفاء من اللبن.. مع أنهم كانوا يختلفون في الفتاوى ويتباينون في الاجتهادات، ويتغايرون في الآراء.. ولكن ودهم أكبر وأقوى من أن تتلفه مآرب الدنيا وأهواء النفوس وحظوظها.

وقد ذهبت مرة لحوار أحد الدعاة والعلماء المشهورين في بيته، ولما سألته عن مسألة خالفه فيها بعض الدعاة قال لي: هو إنساء جاهل لا يعرف شيئاً.. فأكبرت منه أن ينطق لسانه بهذا السب وأن يصدر منه هذا الاتهام لمجرد خلاف في الرأي، وأعجب حينما أرى من العلماء من يكيد لعالم مثله ويمكر له ويسبه، ويحاول التآمر عليه والوقيعة به.. حسداً وبغضاً وكرها، ولو تسنى له قتله لما توانى أو تراجع عن ذلك.. وإذا بحثت عن السبب، فإنك تجدها غيره وحسداً ومنافسة غير شريفة لأنه يفوقه في العلم أو المكانة أو التصانيف أو الجماهيرية والشعبية أو حسن الالقاء والأسلوب.!

وأكثر من تعرض للضغينة من غيره من العلماء، هو شيخ الإسلام بن تيمية رحمة الله، فما كان أعداؤه من الصوفية والكارهين يتركونه يخرج من ورطة، حتى يوقعونه في أخرى.. ولا يستريحون حتى يدخل السجن غيرة منهم وحسداً عليه، وكذلك الحفيد بن رشد رحمه الله، فما كان ذنبه وجريرته، إلا أنه فقيهاً بصيراً مجتهداً، بين جموع من الحفظة الحرفيين الذين يحاججون بما حفظوه وتوارثوه، أما هو فكان يستصحب مقاصد الشريعة في فهمه لنصوصها، وهو ما أغضبهم حين رأوا في عمله هذا خروجاً عن نهجهم.. ولقي ابن رشد نفس المصير الذي لقيه المفكرون الأحرار عبر الأزمان، حين مكر بهم تيار التقليد والإتباع المعادي للعقل الهائم في النقل، والمستظل بروح الشرع.

فالنقل حين يقصر عن روح الدين ويجهل من مقصد الشريعة ومرماها، لا يعد مفخرة أو صواباً.. وإنما هو عين البلاء وبيت الداء.

لقد اتهمه فقهاء المالكية بأنه خارج عن الصراط المستقيم، وحرضوا عليه السلطان حتى سجنه وأحرق كتبه خوفاً من أن تصل للناشئة، ولما أفرج عنه، فرض عليه عزلة، فلم يتركه يخالط الناس حتى لا يضلهم، ونفاه إلى مدينة لا يسكنها غير اليهود، وهذا كله حماية لجناب الدين والعقيدة.

والمفزع أن بعض مصادرنا التاريخية تتناقل ذلك وتنبئنا به، وتتهمه بلا حرج بالخروج عن الملة والزندقة والابتداع والانحراف الفكري.!

وفي ميدان الحقد نرى جموعاً من العلماء التقليدين، الذين انتزع من قلوبهم نقاء الإيمان وحب الإسلام، يكيدون لشباب الصحوة والجماعات الدينية وتيارات العمل الإسلامي، التي تحمل راية الدين، وترافع لواء الدعوة، بحجة أنهم لا يمثلون الدين، وأن مغرر بهم وفريسة للأفكار المنحرفة، فيدعون لمخالفتهم ونبذهم واعتراضهم، والتضييق عليهم، والتصدي لهم، ويصبون عليهم اللعنات، ويتهمونهم بالخروج عن الحق والصواب.

إن الرفيقين قد تغشاهم سحب الحسد والمنافسة، خاصة إذا كانا مرموقين، ولهم شعبية تضطرهم أن يقاتلوا من أجل استمرار بريقهم.. فتصفيق الجماهير لا يوجد مثله في الدنيا يملأ قلب

الضعفاء بالسعادة.. وقد تكون آراؤهم متباينة، وهي الفرصة التي يغتنمها أو يستغلها الشيطان كي يقوم بدوره، ويستخدم كل وسائله وأساليبه ليوجد الشقاق والافتراق، فتفسد القلوب ويتهدم القرب والود، وتفوح روح الكراهية في المجتمع كله.

أما النفوس فإذا كانت هادئة مطمئنة لا تأمر صاحبها بسوء أو تجره نحو الشرور، فإن هناك وحولها أولئك الذين ينفخون في الرماد ويصطادون في الماء العكر، ولا تهدأ قرائحهم العفنة إلا بتأليب العواصف وإثارة الغبار.. وقد حاول أجداد هؤلاء من قبل أن يفسدوا العلاقة بين أحمد والشافعي، حاولوا أن ينبتوا بذور الحقد والحسد بين الإمامين العظيمين، حتى يذهبوا ما بينهم من ود واحترام، ويجرفانهم للتبذل والصغار.. ولكن أنّا لهؤلاء الأقزام أن يناطحوا الجبال الشم، والعمد الرواسي، أنى لهم ولألوف أمثالهم.. أن تفسد قلوب الأبرار أو توقعها في وحل البغضاء والكراهية.. تلك القلوب التي طهرها الله وأدب أصحابها، وبارك فيهم ونفع بهم.

يحكى أن بعض جلساء الشافعي، قد لاحظ زيارته لتلميذه أحمد بن حنبل، فقال أحدهم: إن الناس يقولون: الشيخ يُنزل قدره لتلميذه، والأولى هو الذي يزورك! فأخذ الشافعي الذكي التقي العاقل ورقة وكتب:

قالوا:

يزورك أحمد وتزوره قلت: الفضائل لا تغادر منزله

إن زارنا فبفضله أو زرته فلفضله، فالفضل في الحالين له

فأوصله الناقل للإمام أحمد، فقرأها وفهمها، كيف وهذا أستاذه؟ فتأثر وكتب على ظهر الورقة وردها لشيخه:

إن زرتنا فبفضل منك تمنحنا، أو نحن زرنا فللفضل الذي فيكَ

فلا عدمنا كلا الحالين منك ولا نال الذي يتمنى فيك شانيكَ

الغيرة الإبداعية

ويح الغيرة.. إنها على قدر بشاعتها ووحشتها ولهيبها، إلا أن لها صورًا زاهية، وفوائد جمة، ومشاهد إيجابية مضيئة، نعم.. فعلى قدر ما تَجُر من الحسد والذي ربما يتطور للحقد والبغض والعداء، إلا أنها أثبتت في بعض المواضع، أنها جيدة ومطلوبة، كتلك التي يكون فيها منافسة شريفة وسباق راقي، ولعلك تجد هذا أكثر ما تجده، في الغيرة بين العلماء والكتاب، أو الأدباء والمفكرين والصحافيين، فإذا ألف أحدهم كتابًا سارع الآخر ليؤلف كتابًا، وإذا كتب أحدهم موضوعًا أو مقالًا، هرول نظيره أن يكتب موضوعًا أروع، أو مقالا أكثر إثارة وبريقا.

وهؤلاء جميعًا يصدق فيهم مقولة القائل التي سبق ذكرها: "يغار العلماء من بعضهم كغيرة التيوس في حظائرها" وهذه الغيرة على قدر ما تفسد النفوس وتقتل الود، على قدر ما تثري الحياة الثقافية والعلمية، وهو نفس ما حدث في عصر الأدباء والمفكرين في الثلاثينات والأربعينات والخمسينات والستينات، حيث انتشرت المعارك الأدبية، وقدمت للثقافة أزهى عصورها وأنضر مراحلها.

انظر لهذين الكتابين من أعظم كتب الإسلام وأجل أسفاره، وهما شرحي البخاري (فتح الباري) لابن حجر العسقلاني و(عمدة القاري) للبدر العيني، كان الإمامان يعاصر بعضهما بعضًا، وكانت بينهما غيرة شديدة وجفاء، دفعتهما إلى نوع من التنافس في الإبداع والتأليف والحراك العلمي، وقد بلغت المنافسة بينهما حدًّا بالغًا فتبادلا عبارات القدح والهجاء والتشهير، مما يخرج عن مناهج الجدل بين العلماء، والتوقير والرزانة والهدوء والحكمة.

ففي عام (٨١٧هـ) بدأ ابن حجر تأليف شرحه فتح الباري على صحيح البخاري، فأتبعه البدر العيني بتأليف كتابه عمدة القاري غيرة ومنافسة، وكان البدر العيني يطلع على شرح ابن حجر جزءًا جزءًا، فيشرع لانتقاده في مواطن كتابه، ويعترض عليه بطرق لا تخلو من عنف وتحامل، وحينما تقرأ في العمدة، لا تجد العيني يذكر ابن حجر بالاسم أو الكنية أو اللقب في كل المواضع التي ينتقده فيها، ولكنه يكتفي بقوله: (بعضهم)، ثم يُسند إليها قال أو ذكَرَ أو زعم أو نحوها.

وكان من نتائج هذا الصدام العلمي الرهيب، انعكاسات مهمة على الساحة العلمية، حيث أدت إلى ظهور كتاب (عمدة القاري في شرح صحيح البخاري)، والذي سطر فيه اعتراضاته على فتح الباري، حيث دهش ابن حجر حين اطلع على عمدة القاري، وعجب من تحامل العيني عليه، مما اضطره أن يرد على اعتراضات العيني على شرحه، فألحق تعديلات بكتابه بعد ظهور عمدة القاري، وألف كتاب (انتقاض الاعتراض) وكان مما قال فيه بعد البسملة: "اللهم إني أحمدك على ما ألهمت من المحامد، وأشكرك على فضلك البادي والعائد، وأستنصرك على كل معاند ومُكائد، وأعوذ به من كل شر وحاسد"

وهكذا صار أحدهما يفتش وراء صاحبه لينتقده، أما الآخر، فصار يجود مادته خشية الانتقاد.

ولكن ابن حجر علق تعليقًا ساخنًا مدويًا على عمل البدر العيني، فذكر صراحة أنه يأخذ كلام غيره فينسبه إلى نفسه من غير اعتذار، قال في كتابه انتقاض الاعتراض: (وما ظننتُ أن أحدًا يرضى لنفسه بذلك، وإذا تأمل مَن يُنصف هذه الأمثلة، عرَف أن الرجل هذا عريضُ الدعوى بغير موجب، مُتشبِّعٌ بما لم يُعطَه، مُنتهِبٌ لمخترعات غيره؛ ينسبها إلى نفسه من غير مراعاة عاتِبٍ عليه وطاعن مِمَّن يقف على كلامه وكلام مَن أغار عليه، ولو حلَفتُ أنه لم يُخْلِ باباً من أبواب هذا الكتاب على غزارتها من شيء من ذلك لَبَرَرْتُ، وشاهدي على ذلك عِدْلٌ من كلامه نصاً لا اختصاراً، بل مُصالقةً ومُناهَبَةً، حتى إنه يغفل فينقل لفظة " قلتُ " الدالة على الاختراع له والاعتراض منه، ويكون ذلك كله لمن سبقه.!)

ولم ينس العالمان وهما في ظل هذه الغيرة الطحون، والجفوة العاصفة، ما بينهما من دين وحقوق، فرغم هذه المشاحنات التي قادت إليها المنافسات؛ فإن العيني قد عاد ابن حجر في مرض موته سنة ٨٥٢هـ، ومات العيني بعده بعامين.

وإذا كانت هناك غيرة سامية تسوق للإبداع فهناك نوع من الغيرة المؤذية التي تسوق للاضطهاد والحسد.

ولك أن تتعجب أن تظل نفس هذه الروح تسري مع الزمان والأيام، فتنتقل من أنفس إلى أنفس ،وذوات إلى ذوات، فبينما كان هذا الشقاق بين العيني والعسقلاني، كان في الزمن الحديث قد حدث بين علمين من أعلام الإسلام الكبار، واسمين من أسمائه اللامعة، فقد "رحب صاحب المنار (محمد رشيد رضا) بالكتابات الدينية للأستاذ (محمد فريد وجدي) كما زاره في دمياط وكان يكتب لأصدقائه يثني عليه، ويرجو له أتم التوفيق، وحينما أصدر وجدي كتابه المدنية في الإسلام، قرظه تقريظًا رائعًا، وقرنه بكتاب رسالة التوحيد للإمام محمد عبده، وكانت صداقة قوية عتيدة، ولكن الغيوم أخذت تتلبد في أفق رشيد، حين أصدر وجدي مجلة الحياة، وكأنه رأى فيها منافسًا قويا للمنار، رغم أن اتجاه وجدي في تحرير الحياة، مختلف عن توجه رشيد، وإن اتفقا معا في الهدف الأصيل وهو الدفاع عن الاسلام، ونشر تعاليمه.

وكان الأحرى برشيد أن يؤيد صاحبه ويؤازره بدلا من عدائه الصارخ له، والذي أعلنه حينما أنشأ مدرسة علمية كان هو أستاذها الأوحد، وإذا به يفرد في صفحات المنار مقالات نارية للهجوم على وجدي، دون أي ذنب قد اقترفه! بل هاجمه لأنه عمل عملا صالحًا يحسب له وكان لابد أن يحمد عليه، وما أن ألقى وجدي أولى محاضراته عن فلسفة التشريع، في مدرسته التي أسسها باسم (مدرسة العلوم العالية) وقام بنشرها في جريدة اللواء، حتى ركبت الحمى نفس رشيد، واندفع يخط في المنار تهكما صارخًا على الرجل، واتهمه بالجهل والافتراء على الإسلام، والإتيان بأمور لا يعرفها، وأخذ يشهر به، بل نشر في المنار ، مقالا مسهبا من ٢٥ صفحة، يرد فيه على مقال فلسفة التشريع، ورمى الرجل بالإفك والغش وعدم الأمانة، والحق أن رشيد قد انحدر لهوة سحيقة من النقد والاسفاف في الخصومة، وهي منزلة غير معهودة عليه ولا تليق به، خاصة إذا كانت موجهة لزميل كفاح، لقد قال عن الاستاذ وجدي:

إنه لم يتعلم في المدارس، وسقط في التعليم الحكومي.!

وليته اقتصر على النقد العلمي، ولم يجرح شخص الرجل، ولكن يبدو أن الغيرة منه ومن فعله كانت عنيفة شديدة، لم يطق معها صبرًا أو يتحمل من كبرها شيئًا.

وطبيعي أن يثور فريد وجدي، وأن يكتب ردًا يكشف فيه أسباب التجني، وله العذر في ذلك كل العذر ، ولكنه بعد هدوء ثورة الغضب في نفسه، عادت إليه أناته، فكتب في العدد التالي من مجلته الحياة يقول: "ربما كانت هذه أول مرة قابلنا فيها الإساءة بمثلها، ويجب أن لا تحفظ هذه الملزمة في مؤلفاتنا، ونرجو من حضرات القراء رفعها عنها، هدانا الله لخير الأقوال والأعمال، وحفظنا من زلات الأقلام."[1]

وقد حكي عنه أنه كان يتناقش مع السيد محمد رشيد رضا في مسألة ولما احتدم الجدال صاح فيه السيد رضا قائلاً: أنت جاهل؛ فسكت رحمه الله ولم يرد وانتهى الموقف ولما سأله أحد تلاميذه قال: أنا والشيخ رشيد رضا في خندق واحد ولنا فكرٌ مشترك، وإذا كنا ننادي بالرفق مع خصوم الإسلام لنستدرجهم إلى سماع ما لدينا؛ فإن الرفق مع أصحاب الاتجاه الواحد أدعى وأولى.

والمرء حيال هذا الموقف يتعجب لصنيع الإمام محمد رشيد رضا، إذ كيف له أن يكون منه هذا الموقف الذي لا يقع فيه إلا الجهلاء أو ضعاف النفوس؟ لكنه وهو الأمام الكبير، كان موقفه غريبا غير سوي، لكنها نوازع الغيرة قد تحمل النفوس على ما لا تطيقه عزائمها إن كانت من ذوي العزائم.!

الداعية ليس لسانًا فقط

مما قرأت أن الكنيسة كانت تصوغ وتؤلف الخرافات والافتراءات في أوروبا عن الإسلام، حتى تصون مجتمعاتها من القناعة به وفكرة توسعه وتمدده في أوروبا، وحتى يكتسب الكذب والتدليس والغش صفة القداسة ويصبح الخروج عليها كفرًا وتجديفًا وهرطقة.!

وهكذا ينطلق العداء للإسلام من مؤسسات منظمة ومؤسسات عاملة، تسهر ليل نهار تكيد لهذا التدين حتى تلوي قناعات الناس عنه.!

[1] - راجع كتاب محمد فريد وجدي الكاتب الإسلامي والمفكر الموسوعي، للدكتور محمد رجب البيومي

ولعل هذه الفقرة قد دعتني منذ أيام، أن أتأمل هذا الموضوع، خاصة أنها صادفت كلامًا كتبه أحد الدعاة الشباب، وهو يصف الشيخ (عبد الله رشدي) ومدحه بأن أهم ما يميزه، بأنه لا ينتمي لجماعة من الجماعات.!

والحق أنني أمام هذه الجملة، وأمام ما سبقها من فقرة تحكي تآمر الكنيسة، أرى قصورًا كبيرًا، أو أرى عجزًا باديًا، فإذا كان الإسلام يواجه ويحارب من مؤسسات ومنظمات قوية قادرة غنية، تمتلك المؤهلات والإمكانات، فكيف يصمد إذن وهو لا يمتلك ما لها من الإعداد والتنظيم والتخطيط؟!

بل كيف يقدر فرد واحد، حتى وإن تجمعت فيه ولديه كثير من المواهب والقدرات، أن يواجه منظمة ومؤسسة تمتلك ملايين القدرات والمواهب والطاقات؟!

ومن ثم كان هناك ضرورة قوية وملحة للدعوة الإسلامية، أن يكون لها حظ عظيم من التخطيط والتنظيم، حتى تقدر على مواجهة هذه المؤسسات التي تسير بالتنظيم والتخطيط، فالتخطيط لا يغلبه إلا تخطيط مثله والتنظيم لا يواجهه إلا تنظيم يضاهيه.

وأمام هذه الإشكالية التي نحاول علاجها، يُصر كثير من المخرفين أن يصوروا لنا: أن الإسلام الصادق والصحيح، يكون من البيت للجامع ومن الجامع للبيت، وأن المسلم والداعية الحق هو الذي يرتاد المنبر ليقول كلمة الإسلام، ثم ينزل من عليائه لينام في بيته، وهكذا يكون قد أدى واجبه الدعوي.!

وأمام هذه الصورة من الدعاة، نستطيع أن ننتحب على الإسلام وضياعه، ونستطيع رثاءه والترحم على وجوده الحقيقي، وربما يقول أحدهم: ألا يكفيك الجهات الحكومية المعنية بأمر الدين، كوزارة الأوقاف أو الازهر الشريف، ألا تقوم هذه المؤسسات بواجبها الدعوي في نشر الإسلام والترويج له؟

والحق أقول: إن المنظمات الإسلامية الحكومية أو التي تحمل هم الإسلام، لا يمكن أن يعول عليها كثيرًا بالشكل المرجو والمطلوب، لأن من يتحكم فيها ليس الإسلام وتعاليمه، وإنما

تحكمها في المقام الأول، سياسة الدولة التي تنتسب لها، والتي ترى ما المناسب لها فتملي اعتباراتها وسياساتها وشروطها على الأزهر أو أي جهة دينية سياستها، فلا تتحرك إلا في ضوئها.

ولا نقصد بكلمة (التنظيم) العمل الإرهابي المسلح، الذي ينطلق من أفكار مريضة وتكفيرية ومتطرفة لا تمثل الإسلام الناصع المبهر في شيء، والذي يعتمد في الدعوة إليه على اللين والرفق والحكمة والموعظة الحسنة، وإنما نقصد به اليقظة والتعاون والتآزر على مواجهة خطط الأعداء والعمل على صدها ودحرها بالدراسة والنظر والتأمل والتخطيط المطلوب، والنزول إلى الشارع والاختلاط بالجماهير، وانتهاج أي لون من ألوان التعامل الحياتي اجتماعي أو سياسي أو تعليمي أو فكري، أو حتى رياضي يمكن أن يخدم العمل الدعوي ويمتن قواعده بين الناس.

ولعل الجماعات الدينية التي تنتهج الوسطية والاعتدال والفكر الرصين البعيد عن الانحراف والتطرف، كان لها أكبر الفضل في انتشار التدين في الشارع المصري، وكان لها تأثيرها أكبر من الأزهر نفسه ومن وزارة الأوقاف، لأنها كانت تسير بعمل منظم ومحكم يستطيع أن ينتج بعض الجهود التي تواجه الأخطار التي يواجهها الإسلام من جهات منظمة.

الدعاة في هذا الوقت خاصة من يتخرجون من الأزهر يجب أن يدركوا هذه القضية، ويعملون على دعمها والايمان بها، لكن بعضهم للأسف يصاب بداء التعصب الأعمى المقيت، والرؤية القاصرة المشينة، فلا يرى غير الأزهر يمثل الإسلام، أو هكذا يتصور معتمدًا على تاريخ منير، صار الواقع خلافه وعكسه تمامًا، وهو لا يدر أن كثيرًا من الشيوخ الذين ينتسبون لتنظيمات دينية وجماعات إسلامية، صارت لهم مكانة كبيرة في نفوس الجماهير، أكثر من علماء الأزهر ودعاته، وبدلا من أن يصححوا مسارهم، صاروا جمرة حارقة ترمي الجماعات الدينية بالسوء، وتحارب وجودها، ويصفون الداعية الذي لا ينتسب لجماعة ولا ينتمي لحزب، بأنه الأفضل والأحسن وهو لا شك تصور قاصر ضعيف.!

فتنة التلاميذ

يلعب التلاميذ دورًا كبيرًا في الحياة العلمية والدعوية والحركية، فرغم أن التلاميذ لا يزالون في مرحلة التعلم، إلا أن صوتهم ووجودهم له صداه وأثره، كلما قرأنا عن حياة الشيوخ، وكثيرًا من مواقف الصدام بين المذاهب والحركات والتيارات.

كان التلاميذ في كثير من الأحيان يبلغون من الشيخ والعالم مكانة ومقامًا أكثر من أبنائه وذريته، وكان ولاؤهم له شديدًا جدًا يصل لحد التعصب الأعمى أو القتال دونه.

وبسبب هؤلاء التلاميذ الذين يتعصبون ولا يتربون ولا يتعلمون من شيوخهم كيف يتأدبون مع غيرهم؟ كانت هناك محن كثيرة يئن التاريخ من ذكرها.

كانت هناك علاقة روحية كبيرة تربط بين الطالب وشيخه، وكان التلميذ يُقدم الشيخ على كل من يعتز بهم في الدنيا لأنه كان يراه سبب نجاته وبلوغه مراتب العلم والكمال، قال أبو حامد الغزالي: "حق العالم آكد من حق الوالد، لأن الوالد سبب النجاة في الدنيا والعالم سبب النجاة في الآخرة"

لقد كان العلم رحمًا بين أهله، وكانت سمات الشيوخ وصفاتهم تنعكس على التلاميذ، وهم يحاولون بل يجتهدون في تقليدها ومحاكاتها، حتى في ملابسهم وطريقة خطوهم ومجالسهم كانوا يقلدونهم.!

ومما كان يأسى له الشيخ القرضاوي من طرده من مصر أيام جمال عبد الناصر، قوله: أنهم حرموه أن يكون له تلاميذ ينقلون علمه ويتربون على يديه.

لقد رفض سعيد بن المسيب أن يصاهر أمير المؤمنين عبد الملك وأن يزوج ابنته لولي عهد الخلافة وخليفة المستقبل، وفضل عليه تلميذًا فقيرًا من تلاميذه، أحب إلى قلبه من الوليد ومستقبله.

ومن يقرأ عن علاقة أبي حنيفة بتلميذه أبي يوسف، يتعجب وينبهر لحرص أبي حنيفة عليه ومجاراته لأمه وحيلته في تعليمه وتنبؤه له بمستقبل عظيم.!

وكان ابن القيم يعظم شيخه ابن تيمية ويحبه حبًا عظيمًا فيقول رحمه الله: (لا شك أن شيخي أحب إلى من غيره، ولكن الحق أحب إلى من شيخي) وكان ابن القيم يرى في شيخه الملاذ الآمن في المسائل العويصة، فيقول رحمه الله: كانت إذا ألمت بي المحن، وادلهمت الخطوب، كنت أذهب لشيخي ابن تيمية فما أن أراه إلا وأطمئن، فكان أروح الناس نفسًا وأطيب الناس قلبا.

حتى بعد موت الشيخ كان الولاء ما يزال قائمًا منتصبًا في صدر التلاميذ، فيظلون ينافحون عن شيوخهم وآرائهم طوال حياتهم.. وفي الزمن الحديث كانت تقوم المعارك الأدبية بين تلاميذ الرافعي الذي مات ورحل عن الحياة، وبين تلاميذ العقاد كل ينتصر لمذهب أستاذه ومعلمه.

وكان المرصفي يسمي تلميذه زكي مبارك بعروس الأدب لتفوقه ونباهته، وكان زكي يبكر إلى درسه ويتقرب منه، ويكتب كل ما ينطق به، حتى جمع من درسه ثلاثين كراسة، يقول: وكان الشيخ قد تعود أن يراني أمامه، فجئت يوماً متأخراً، ورفض الطلبة أن يفسحوا لي المجال، فقال الشيخ: أين زكي؟ فأجبت من بعيد: ها أنذا يا مولاي، فقال الشيخ رحمة الله عليه: "وسعوا له لعله ينفع" ثم يقول:" ضاعف الشيخ رحمه الله من حرصه على نفعي، فكنت أحضر جميع دروسه، وأصحبه في الطريق، وأمضي إلى بيته، فأطلع على ما لديه من مكنون الذخائر الأدبية واللغوية، وأنشد شعري، فيقومه، ويصلح منه في رفق كثير"

لقد سجلت الأيام أي مذكرات طه حسين، أنه كان أجرأ التلاميذ وأوقحهم على شيوخه، وكان يعتبر الإساءة إليهم وتنقيصهم نوعًا من البطولة والتميز، فلم يسلم من قلمه ولسانه إلا القليل منهم، فلما كبر ونضج ندم وحزن لما سلف له من تسفيه الشيوخ.

ومن العجيب أنه كان هناك تلاميذ لا انتماء لهم، يدورون على الحلقات فيستنطقون العيب والسبة من فم الشيخ، ويبلغونها للشيخ الآخر، ويوقعون الضغينة والخصومة بين العلماء، فما أشرهم وأسوأهم وأتعسهم، كانوا يسعدون بذلك، ويجدون فيه لذة عظيمة تغنيهم عن طلب العلم، ولما كبروا.. كانوا يتندرون فرحين بهذه الوقائع، بدلا من الندم وطلب الصفح من الله الكريم.

كما أن من التلاميذ من يجبرون شيخهم على ما يخالف إرادته، فقد روى ابن خلكان أن المدرسة النظامية بدئ العمل في بنائها سنة ٤٥٧هـ وفتحت يوم السبت عاشر ذي القعدة من سنة ٤٥٩هـ، وكان نظام الملك قد أصدر أمره بتعيين كبير فقهاء الشافعية في بغداد، أبي إسحاق الشيرازي للتدريس بها، واجتمع الناس يوم الافتتاح للاستماع إلى أول درس يلقيه، ولكن أبا إسحاق لأمر ما، اختفى في ذلك اليوم ولم يحضر إلى المدرسة، فعين مكانه عالم آخر لا يقل عنه شأنا ومكانة، وهو أبو نصر بن الصباغ، وبعد أيام ظهر الشيخ أبو إسحاق في مسجده، وكان أصحابه وتلاميذه قد آلمهم موقفه، كما آلمهم أن يولى منافسه ابن الصباغ للتدريس في النظامية، فأعلنوا غضبهم من شيخهم، وانفضوا عن دروسه احتجاجًا، ثم راسلوه، وما زالوا به يقنعونه أن يقبل وظيفة الأستاذية بالنظامية، وهددوه أن ينفضوا من حوله، وينضموا إلى ابن الصباغ إن هو أصر على موقفه، فاضطر أن يذعن إلى رأيهم، وقبل المنصب، وبدأ التدريس في النظامية، وعزل ابن الصباغ بعد أن درس عشرين يومًا.

العمائم الخائنة

إن حب الذات وإيثار المصالح الشخصية والأنانية، خلال سيئة لا تتمكن من نفس، إلا ويغدو صاحبها وبالا على الحياة والأحياء، يسير في الدنيا لا يعبأ بدين ولا خلق ولا ضمير ولا إنسانية، ولا يعترف أبدًا بتلك الصفات التي يقرها وينادي بها أسوياء الفطرة السليمة، والخلق النبيل، من الرحمة والمساواة والعدالة والتواضع والعطف والرفق والسماحة والإحسان.. لا قيمة أبدًا في نفسه لهذه الصفات، ولا تقرها أو تجيزها قواميسه ومعارفه، ذلك لأن إيمانه الشديد والقوي، إنما يهبه لنفسه وذاته فقط، فهو لها يعيش، ومن أجلها يحيا ويقاتل ويكافح.!

ومن هنا لا يحار المرء كثيرًا حينما يقرأ في التاريخ عن هؤلاء الحكام المسلمين، الذين استعانوا بالنصارى في مواجهة من يصارعون من إخوانهم المسلمين.. غير عابئين بمصير الأمة ومستقبل الإسلام، بقدر ما يهمهم في المقام الأول أطماع نفوسهم ومآرب شهواتهم.

ولعل العجب يخف نوعًا ما، حينما ننظر من بعيد إلى المناخ الذي يعيش فيه هؤلاء، وهو مناخ السلطة والحكم والجاه، وهو عالم قلما يرتاده من يرجو الله وقارا، ويغرق أذنابه في غرور الدنيا القاحلة، وتتعاظم في نفوسهم حب الأنا والأثرة والطمع والنهم الذي لا يشبع، والغلة التي لا ترتوي.

ومع هذا الصنف من الناس قد نجد العذر، أو بمعنى آخر ندرك أبعاد العلة التي دفعتهم لذلك التردي وتلك الخيانة.!

ولكن المدهش حقًا أن ترى علماء دين وأئمة ودعاة، تسيطر عليهم أهواؤهم، ويلبون نداء الأنانية والحقد والحسد، على حساب الحق والدين والعدل والإنصاف.

وتتساءل متعجبًا.. كيف لهذه النفوس التي يفترض منها وبها أن تكون عارفة بالله، زاهدة في الدنيا، أن تظهر على هذا القدر الوضيع من غِل النفس وسقوط الذات، وانحدار الأخلاق.؟!

جاء في المنار بتاريخ غرة المحرم ١٣٢٢هـ هذه الرسالة التي نقلها الإمام الفذ محمد رشيد رضا، عن تغاير العلماء في روسيا بقوله: كتب إلينا (فيض الرحمن أفندي أحمد القزاني) المجاور، رسالة ملخصها أن أحد علماء (خان كرمان) تلقى العلم في الآستانة، ولما رجع إلى وطنه سعى إلى إنشاء مدرسة خيرية، وكان يعلم فيها حتى وَشى عليه بعض المعممين الحكوميين بأنه يستميل التلاميذ إلى تركيا، بتعليمه على الطريقة التركية، فأقفلت الحكومة المدرسة، ثم سعى فاستصدر أمرًا بفتحها، فعاد أصحاب العمائم إلى الوشاية حتى أقفلوها، ولا شك أن أولئك السُعاة، هم أكبر بلاء على أمتهم وملتهم، وقد خجلنا من ذكر صنيعهم، مع كثرة ثنائنا على أخلاق مسلمي تلك البلاد، فعسى أن يتوبوا إلى ربهم، ويثوبوا إلى رشدهم."

ونحن ندرك مع انتهاء هذه الرسالة، أن من العلماء من يغار بعضهم من بعض، ولكنها تلك الغيرة المشروعة، أو ينافس بعضهم بعضا تلك المنافسة المحمودة، أما أن يتطور الأمر ليصل إلى حد المؤامرة التي تضر بالعلم والدين والأمة، فذلك فعل قبيح وجريرة عظيمة، لا يقترفها إلا عمائم ضالة خائنة، استبد بها حب النفس وتقديس الأهواء.!

"بل تضطرهم المعركة إلى منازلة فريق من مشايخ الطرق أغواهم الإحتلال الفرنسي، فاتخذهم أداة لتخدير العقول وتسميمها باسم الدين، فهم يقومون بالشعوذة والدجل، ولا يكادون يفرغون من رقصات الذكر ودقات الطبول، وتأويل الأحلام وكتابة الأحجبة والتمائم، كما يسعون لتشويه الإسلام بترديد الاسرائيليات، والدعوة إلى مسالمة الفرنسيين، مع بث التواكل والزهد، وعرض الإسلام في صورة انعزالية جامدة لا تدعو إلى بعث أو إصلاح"[1]

العالم الذي سرق!

حينما يسرق اللص فلا غرابة في ذلك لأنه لص.. والدنيا كلها تعرف أنه لص.. أما حينما يسرق حسن السيرة، نقي اليد.. فإن الغرابة تقل وتتضاءل حينما نفرض له الأعذار والاحتمالات، فلعله في حاجة للمال، أو ألمّ به فقر أو أعجزته ظروف الحياة وما فيها من غلاء الأسعار وتكاليف المعيشة، أو أجبرته ظروف قاسية على فعل ما ليس من أخلاقه.. كل هذا مقبول ومسموح للعقل أن يستوعبه، أما حينما نسمع عن داعية وعالم يسرق ويسطو على حقوق الآخرين، فهنا تكون الطامة الكبرى، التي ينبهر لها العقل، ويجن جنونه لنبئه المفزع، الذي يشعر معه بالخيانة، فيظل حائرًا في دهشته، متندرًا بما رماه به الزمن من حادثة فاقت تصوراته وظنونه.!

ففي فترة التسعينات، ظهر نجم داعية موهوب وذاع صيته، وصار القاصي والداني يتحدث عنه، وكان هو يبهر الناس بحديثه وتأملاته في القرآن الكريم، والإيمانيات والأحكام، كما كان يلفت الأنظار بغطاء الرأس، الذي كان يشبه ما يرتديه الشيخ الشعراوي، وهكذا ديدن بعض الدعاة، كلما أراد أن يتقرب للناس، فإنه يقحم شيئا من خصائص الشيخ الشعراوي في هيأته.! وكان يحبر كل الناس إذا جاء موعد برنامجه أن يشاهدوا القناة السادسة، التي لم يكن لها في ذلك الوقت جمهور كبير، حتى يأنسوا بحديثه ويستمتعوا بإبداعاته.! ولنترك التعريف بضيفنا الكريم ومحاولات التلميح لشخصه السامي، لأنني لا أحب أساليب الفضح والتجريس.. فما يهمنا في المشهد إلا أن نركز على الفعلة الدنيئة، والتعريف بحقارة الجريمة.. من قديم وفي كتابي أقرأ وأنا

[1] - من كتاب أعلام النهضة للبيومي في سيرة ابن باديس

أقول: إن أبشع صور السرقة وأقذر أنواع اللصوص، أولئك الذين يسرقون الفكر ويسطون على الإبداع العلمي، وينسبونه لأنفسهم دون أن يؤنبهم ضمير أو تقرعهم مروءة.. أشعر أنهم تخلوا وتجردوا من كل القيم حينما سمحت لهم أنفسهم أن يقبلوا بهذا الزور، وينسبوا لأنفسهم فخرًا، جهدا لم تقدمه قرائحهم وعجزت عنه علومهم.! وصاحبنا اليوم على مجده وشهرته الكبيرة، وقع وللأسف في هذا النوع المدوي من أنواع الحرام، وقبل أن يسطوا على فكر غيره ويسرق جهدا لم يأت به، وينسب لنفسه كتابًا لم تخطه يداه، ولم يطرحه إبداعه.! ورغم أن للرجل عددًا لا بأس به من المؤلفات التي كان يجب أن تصيبه بالقناعة والتعفف.. إلا أنه لم يتورع عن هذه النقيصة، والفعلة التي لا تليق بعالم مثله، يعظ الناس ويهديهم لمكارم الأخلاق.

أحد أصدقائي الموثوقين من محافظة كفر الشيخ، حكي لي هذه الحادثة الأليمة التي فجعتني في هذا العالم والداعية الكبير، وقال لي: كان لي صديق ماتت أخته وتأثر لموتها كثيرًا، ولم يجد طريقًا لينفث عن هذا الهم، إلا أن يؤلف كتابًا عن الموت، يعكس فيه ما وجد من مشاعر الاستهانة بالدنيا والتفكير في مصير الإنسان وسماه (الموت.. حقيقة منسية) ورأى أن يعرض كتابه على هذا العالم الكبير الذي كان أستاذًا له في الجامعة، حتى يحظى بتوجيهاته وييسر له أمر طباعته، ثم جاءتنا إعارة إلى ليبيا، وكان العالم الكبير يتواصل مع صديقي بالخطابات التي كانت تأتي على بريدي الخاص، وكنت أقرأها مع صاحبي، وكان يخبره فيها بمراحل الكتاب وطباعته، حتى فاجأنا يومًا بالكتاب مطبوعًا موقعًا باسم صديقي، الذي وزع علينا نسخا منه، وفي مقدمة الكتاب يشرح قصة أخته التي آلمه فراقها، وعزم عبر حزنه عليها تأليف هذا الكتاب.. وبعد فترة غير كبيرة، كنت مصادفة أشاهد أحد البرامج التي استضافت الشيخ الكبير، وفي نهاية البرنامج عرض الشيخ لكتبه المؤلفة التي كانت تظهر على الشاشة حتى جاء الكتاب الأخير الذي أعلن عنه بقوله: وهذا كتابي الأخير تحت عنوان (الموت.. حقيقة منسية) ولم أصدق نفسي ساعتها، وكدت أفرك أذني علها سمعت خطأ، ففزعت وقلت ماذا يحدث؟ وسارعت متصلا بصديقي وأخبرته بما حدث، وأن الرجل نسب الكتاب لنفسه على الهواء، لكن صديقي كان يتمتع بسلبية

منقطعة النظير، لدرجة تسوقه أن يفرط في كرامته وحقوقه، فقال لي: لعله نسي أو أخطأ ولا يقصد، حاولت معه مرارًا وأنا في قمة غيظي وغضبي، إلا أنه لم يكن يستطيع فعل أي شيء، واستسلم لسرقه فكرته وجهوده على يد الشيخ الكبير، أو اللص الكبير، يقول محدثي: لو لم تكن المراسلات التي كان يبعث بها الشيخ إلى صديقي وكنت أقرأها بنفسي، والتي يشرح فيها كيف تم إعداد الكتاب وتهيئته للطبع؟ وكيف كان يشيد فيها بالكتاب وموضوعه لما كنت أصدق؟! ولو لم أر أول النسخ المطبوعة والموقعة باسم صاحبي لما كنت أصدق.. ومن يومها وأنا في صدمة كبيرة من هذا الرجل، وعزائي أن ذِكره قد خفت، وأن نجمه قد أفل في هذه الأيام.

مصر بلد البخاري

هل تصدق لو قلت لك: إن صحيح البخاري بالنسبة لمصر، يمكن أن يتخذ أو يكون معلمًا مهمًا من معالمها التي تميزها على مر التاريخ، كأبو الهول والأهرامات وبرج القاهرة وكوبري قصر النيل، وقلعة محمد علي، وغير ذلك من مآثر مصر؟!

لا شك أنك ستتعجب من ذلك! ولكن هذا العجيب سيزول حينما تعرف السبب الذي يناقشه هذا المقال.

سبحان الله.. في هذه الأيام، وفي ظل هذه الهجمة الشرسة على صحيح البخاري، التي يرددها ويتزعم إثارتها العلمانيون والحاقدون والجاهلون والمتآمرون على الإسلام، بغية هدم السنة وتقويضها كأساس من أسس الدين، كان من غريب المفارقة أو طرائف الأقدار، أن تكون مصر ذاتها، هي أكبر بلاد الدنيا احتفاء بهذا الكتاب.. حفاوة لا نظير لها وغير مسبوقة ولا ملحوقة.!

فقد بلغت شروح البخاري ما يقارب الأربعين شرحًا لعلماء من بلدان الإسلام المختلفة شرقًا وغربا.. ولكن المصريين وحدهم كان لهم نصيب الأسد منها، حيث بلغ عدد الشروح المصرية ما يقارب العشرين شرحا، وهو ما يؤكد تقدير هذه البلاد الطيبة، للسنة المباركة وكتبها ومتونها.

وهنا أحب أن أذكر بعض هذه الشروح، لنرى عظمة العلماء المصريين الذين جعلوا من هذا الكتاب، مهجة أرواحهم، وقرة أعينهم، ومنية نفوسهم، فسهروا عليه وأدمنوا النظر فيه، وقدموا للدنيا كثيرًا من نوره ونفعه وهديه، ولم يقدموا بشروحه إرهابًا أو تطرفا، ولم يؤسسوا بشروحه أحدًا من الدواعش، ولم يلقنوا الناس فكرًا منحرفًا يعادي الآخرين ويفسد حياة الانسان، كما يدعي اليوم أهل الزور والفجور.. وإن قدر لكلامهم أن يكون صحيحًا، فإن مصر التي احتفت بهذا الكتاب، وخرجت شروحه العظيمة للدنيا كلها، تعد إذن منبع الإرهاب وموئل منابته، لأنها أكثر بلاد الدنيا قيامًا وعناية بكتاب البخاري.

انظر وتأمل معي بعض هذه الشروح: -

١-فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تأليف: ابن حجر العسقلاني، المتوفى سنة ٨٥٢ هـ، وهو أشهر تلك الشروح.

٢- البدر المنير السَّاري في الكَلام على البخاري، تأليف: عبد الكريم بن عبد النور بن منير الحلبي، المتوفى سنة ٧٣٥ هـ

٣- العقد الجلي في حل إشكال الجامع الصحيح للبخاري، تأليف: أحمد بن أحمد الكردي، المتوفى سنة ٧٦٣ هـ.

٤- التنقيح في شرح الجامع الصحيح، تأليف: محمد بن بهادر الزركشي، المتوفى سنة ٧٩٤ هـ.

٥-التوضيح لشرح الجامع الصحيح، تأليف: عمر بن علي بن الملقن، المتوفى سنة ٨٠٥ هـ.

٦- الإفهام شرح صحيح البخاري، تأليف: جلال الدين البلقيني، المتوفى سنة ٨٢٤ هـ.

٧- اللامع الصبيح على الجامع الصحيح، تأليف: محمد بن عبد الدائم بن موسى البرماوي، المتوفى سنة ٨٣١ هـ.

٨- مصابيح الجامع الصحيح، تأليف: محمد بن أبي بكر الدماميني، المتوفى سنة ٨٢٧ هـ.

٩- عمدة القاري، تأليف: محمود بن أحمد بن موسى العيني، المتوفى سنة ٨٥٥ هـ.

١٠- تعليق على البخاري، تأليف: محمد بن محمد بن علي النويري، المتوفى سنة ٨٥٧ هـ.

١١-شرح الحافظ مغلطاي بن فليج التركي المصري الحنفي، المتوفى سنة ٧٩٢ هـ.

١٢- شرح الإمام ناصر الدين علي بن محمد بن المنير الإسكندراني، وهو شرح كبير في نحو عشر مجلدات.

١٣- شرح القاضي مجد الدين إسماعيل بن إبراهيم البلبيسي، المتوفى سنة ٨١٠ هـ.

١٤- شرح الشيخ أبي البقاء محمد بن علي بن خلف الأحمدي المصري الشافعي، وهو شرح كبير كان ابتداء تأليفه ٩٠٩ هـ.

١٥- التوشيح شرح الجامع الصحيح، تأليف: جلال الدين السيوطي، المتوفى سنة ٩١١ هـ.

١٦-شرح الشيخ زين الدين عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد العباسي، المتوفى سنة ٩٦٣ هـ.

١٧-إرشاد الساري شرح صحيح البخاري، تأليف: شهاب الدين أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني، المتوفى سنة ٩٢٣ هـ.

١٨- النور الساري من فيض البخاري، تأليف: حسن العدوي الحمزاوي المالكي، المتوفى سنة ١٣٠٣ هـ.

١٩- شرح فتح المبدي على مختصر الزبيدي لشيخ الإسلام عبد الله الشرقاوي.

وبعد هذا كله يقولون:

البخاري منبع الإرهاب.!!

عادة مصرية!

كان من أغرب ما ذكرته أوراق ومحاضر التحقيقات في قضية (ريا وسكينة) عام ١٩٢٠م، أن المتهمين كانوا يحلفون بالبخاري لنفي التهمة عنهم أو لإثبات أقوالهم أمام النيابة، وهو نفس ما حدث في قضية أدهم الشرقاوي البطل الشعبي الشهير التي لم يرد فيها أي قسم بالله تعالى أو بكتابه حيث كانوا يقسمون بالبخاري.!!

في حياة المصريين تتعجب من هذا التعلق الكبير بالإمام البخاري وكتابه، حتى وصل الأمر بعوامهم الذين يفتقرون إلى العلم أن يحلفوا به في أيمانهم.. فبدلاً من أن يقول أحدهم: (والله أو

بالله أو تالله) يأتي يمينه فيقول: (والبخاري لأفعلن كذا وكذا) وهي المنزلة التي لم يجعلوها للقران الكريم نفسه في قدسيته وعظمته.. وأنا هنا لا أدعوه للحلف بالبخاري من دون الله سبحانه وتعالى، أو اتخاذه ندا للقرآن الكريم، وحينما أطالب بعودة هذه العادة، أو عودة هذه العلاقة.. فأقصد بها الإشارة إلى ذلك الاهتمام القديم والعناية التاريخية بالبخاري كأعظم كتب السنة، وكشيء ثمين في حياة المصريين، والذي يدلل بعمق على قوة إيمانهم وتعظيمهم للإسلام ونبيه وسنته.. في زمن صار المصريون الجدد مولعون برواية هيبتا وعزازيل.!

ولعل هذا الارتباط مع ما يشوبه من انحراف عقدي.. يفسر لنا شدة تدين المصرين، أو حبهم للسنة المطهرة وآثار الرسول الكريم ﷺ أو مدى تعظيمهم لكتاب البخاري الذي هو أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى، والأمام بن حجر العسقلاني، وهو أحد المصريين الذين شرحوا صحيح البخاري، يذكر لنا في مقدمة كتابه فتح الباري عن أبي محمد بن جمرة قوله : (قال لي من لقيته من العارفين عمن لقي من السادة المقر لهم بالفضل أن صحيح البخاري ما قرئ في شدة إلا فرجت، ولا ركب به في مركب فغرق. قال : وكان مجاب الدعوة، وقد دعا لقارئه رحمة الله تعالى.."

ويحكى الجبرتي المؤرخ المصري العظيم، أن المصريين كانوا إذا ألمت بهم نازلة أو نزلت بهم كارثة، اعتكفوا في المساجد لقراءة صحيح البخاري داعين الله تعالى أن يرفع عنهم البلاء.! وعندما دخل نابليون بجيشه ودنس ساحة الأزهر الشريف، خاف المصريون على كتب الحديث، تماما كخوفهم على المصاحف.

وفي أحداث سنة ١٢٢٨ هجرية أمر محمد علي باشا لما (..زاد الإرجاف بحصول الطاعون وواقع الموت منه بالإسكندرية، فأمر الباشا بعمل الحجر الصحي بثغر رشيد، ودمياط، والبراس وشبرا، وأرسل إلى الكاشف الذي بالبحيرة بمنع المسافرين المارين من البر، وأمر أيضًا بقراءة صحيح البخاري بالأزهر، والمساجد والزوايا وسورة الملك، والأحقاف في كل ليلة بنية رفع الوباء؛ فاجتمعوا إلا قليلا بالأزهر نحو ثلاثة أيام، ثم تركوا ذلك وتكاسلوا عن الحضور..)

حتى في ساحات المعارك، كان هناك معتقد بأن البخاري يجلب النصر والبركة وينزل الهزيمة بالأعداء.! فيفما ذُكر أنه لما وقعت الحرب بي (مصر و الحبشة) وتوالت الهزائم على (مصر) ضاق صدر (الخديوي إسماعيل) فركب يومًا مع (شريف باشا) وهو مُحرجٌ ، فأراد أن يُفرَّجَ عن نفسه.. فقال لـ (شريف باشا): ماذا تصنع حينما تُلم بك ملمَّة تريد أن تدفعها؟ فقال: يا أفندينا إن الله عوَّدني إذا حاق بي شيء من هذا أن (ألجأ إلى صحيح البخاري) يقرؤه لي (علماء أطهار الأنفاس) فيفرج الله عني.. فكلم شيخ (الأزهر) الشيخ (العروسي) فجمع له من (صلحاء العلماء) جمعًا و أخذوا يتلون في (البخاري) أمام القبلة القديمة في (الأزهر) ومع ذلك ظلت أخبار (الهزائم) تتوالى.. فذهب (الخديوي إسماعيل) ومعه (شريف باشا) إلى (العلماء) وقال لهم محنقا عليهم: إما أن هذا الذي تقرؤونه ليس (صحيح البخاري)، أو أنكم لستم (العلماء) الذين نعدهم من (السلف الصالح) فإن الله لم يدفع بكم و لا بتلاوتكم شيئا ؟! فوجم العلماء لذلك، وابتدره شيخ من آخر الصف يقول له: منك يا إسماعيل، فإنا روينا عن النبي ﷺ أنه قال : (لتأمرن بالمعروف و لتنهون عن المنكر، أو ليُسلطن الله عليكم شراركم، فيدعوا خياركم فلا يُستجاب لكم)

يذكر أن الخديوي بعد ذلك دعاه و أجلسه على كرسي أمامه، وقال له: وماذا صنعنا حتى ينزل بنا هذا البلاء؟ قال: يا أفندينا أليست المحاكم المختلطة قد فُتحت بقانون يبيح الربا؟ أليس الزنا برخصة؟ أليس الخمر مباحا؟ أليس... وأخذ يعدد له منكرات تُفعل بلا إنكار فقال (الخديوي): وماذا نصنع وقد عاشرنا الأجانب، وهذه مدنيتهم؟ قال: إذن فما ذنب (البخاري) وما حيلة العلماء؟ وذكر الجبرتي كذلك في سنة ١٢٣٢ حصل الأمر للفقهاء بالأزهر بقراءة صحيح البخاري؛ فاجتمع الكثير من الفقهاء، والمجاورين، وفرقوا بينهم أجزاء، وكراريس من البخاري يقرؤون فيها في مقدار ساعتين من النهار، بعد الشروق فاستمروا على ذلك خمسة أيام، وذلك بقصد حصول النصر لإبراهيم باشا على (الوهابية)، وقد طالت مدة انقطاع الأخبار عنه، وحصل لأبيه قلق زائد، ولما انقضت أيام قراءة البخاري نزل للفقهاء عشرون كيساً فرقت

عليهم، وكذلك على أطفال المكاتب.. كما قرر السلطان العثماني قراءة صحيح البخاري له في مصر، وذلك سنة ١٢٠٢ هجرية، وأن يدعوا الناس له بالنصر..

ورغم ما في هذه العادة من غلو كبير حينما يقدم أصحابها على الحلف بالبخاري من دون الله، أو تعظيم كتابة أكثر من تعظيم القرآن الكريم.. إلا أنها من حيث قراءته واحتضانه والاهتمام به شيء محمود، اندثر من حياتنا في هذه الأيام ولم يعد موجودًا، وندر من المصريين من نجد في بيته أو مكتبته ولو جزءًا من صحيح البخاري، أو حتى رآه مرة أو قرأ في صفحاته.! بل حتى إن سألت أكثرهم ما هو صحيح البخاري؟ فربما يعجز عن الرد.! كما يمكن التطوير في هذا التقدير، لتتم قراءة الكتب الخمسة الأخرى الصحيحة كصحيح مسلم والسنن الأربعة ابن ماجة والنسائي والترمذي وأبو داود.. فتخصيص البخاري وحده بهذه المكانة فيه تشدد ملحوظ، وكذلك التبرك به أمر لا سناد له من الدين، ولم يرد في فعل السلف الصالح..

هناك أناس يجبون الغلو في كل شيء وتأخذهم العاطفة لاستحداث أمور منكرة، ترفضها الشريعة ويضادها الدين.. ومن ثم لابد من التوعية والتنبيه وأخذ الحيطة والحذر والعمل المتوازن، حتى لا يتطور بها الحال لتصير ذلك المنكر الممقوت.!

الذين يهدمون تراثهم

هناك بعض الناس وقع عليهم بلاء شديد وعظيم وهم لا يتنبهون له، لكنه ظاهر عليهم واضح في ألسنتهم وتصرفاتهم، مما يجعل المرء دومًا أن يحمد الله الذي عافاه مما ابتلى به غيره.

وهؤلاء المبتلين حينما نبحث في أصل بلائهم نجدهم في حالة عداء شديد مع سلفهم، فهم يتهمونهم بالتخلف، ويريدون طمس تاريخهم، ومحو آثارهم، بما فيه من حضارة وعلم وتراث وهوية، لأنه صُور لهم، أو غرر بهم فصُور لهم، أن أمتهم أمة رجعية متخلفة، وأن دينهم دين رجعي لا يتماشى مع حياة البشر، ولا يناسب التطور والتقدم الذي وصلت إليه الدنيا اليوم، وأن العلاقة مع الله كما يدين بها الشرق الإسلامي كله، ليست هي العلاقة التي أقرها الله تعالى، وإنما هي من وضع الأفاقين الذين يسمون أنفسهم علماء، والله تعالى بريء من كل شيء وضعوه،

ومن ثم يجب أن نخرج من هذا الدين الذي وضعه البشر، إلى الدين الذي يريده الله وهو الإنسان.

فهم يؤمنون أن العلاقة المثلى بين العبد وربه، هي تلك الصورة التي أملتها النصرانية على منتسبيها، فالله تعالى في المحراب فقط، أما خارجه فلا، لأنها دنيا البشر لا دخل لله تعالى فيها، ورفعوا شعارهم (دع ما لقيصر لقيصر، وما لله لله) ونسوا أو تناسوا أن الإسلام غير هذا، ولا يؤمن بهذا، فالله تعالى يقول في كتابه الكريم: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) فكل شيء يخص المسلم إنما هو لله وبالله في نسكه وعبادته ومحياه ومماته.

ويسير البلاء بهؤلاء حتى يبلغ بهم مبلغًا عميقا، فيوغلون في بغضهم أمتهم وتاريخها، ويحتقرون علماءها وتراثها، ولا ينظرون منها، ولا يرون فيما مضى من أيامها شيئًا مضيئًا مشرقًا، وإنما هو السواد والسوء والقتامة، التي يجب هدمها والقضاء عليها.

فيطعنون في التفاسير وفي المحدثين، ويسخرون من أقوال الفقهاء، ويسهرون أعينهم بالنظر في كتب التراث، حتى يستخرجوا منها المشين والمذري من الأقوال الضعيفة والشاذة، ليؤكدوا افتئاتًا على ضعف عقول هؤلاء الناس الذين وضعوا تراث المسلمين، وأنها عقول لا يجب أن تحترم، حينما يصدر منها هذا الكلام، ثم يتناولون اجتهاداتهم ويحاولون أن يصوروا للناس أنها أصول وثوابت دينية تستحق السخرية، وما هي إلا اجتهادات فقهية، قالها أصاحبها في زمانهم، ولم يدعوا أبدًا لها العصمة والنزاهة، ويمكن لها أن تتغير وتتبدل بتغير الحال والناس، كما أن ما نجده في بعضها من شذوذ أو ضعف، إنما يرجع قول صاحبها وغرضه فيها إلى علم الله تعالى حينما قالها، وربما تدخل تحت الأقوال الضعيفة غير المقبولة، والتي لا يجب أن نقف حيالها موقفًا متذمرًا بحيث ننفخ فيها ونجعل منها السلمة التي ننفذ منها لهدم تراث الأمة كله، والتنكر له والوقوف منه موقفًا عدائيًا، مع أنهم لو نظروا للتراث الديني لأديان الحضارة التي يدعون لها

[1] - سورة الأنعام: ١٦٢

ويؤمنون بها، لوجدوا فيه المساخر والمهازل التي لا يقبلها عالم الحيوان، ناهيك عن الإنسان، بل في أقوال فلاسفتها ومفكريها ما تنكره الفطر السليمة.

التعامل مع التراث الفقهي للمسلين لا يجب أن يكون بهذه النذالة والغدر والسفه، علينا أن نُخضع هذه الكتب لتحقيق العلماء، وننظر قولهم فيها، ولا يأخذنا الشطط لنجعل من بعض الهنات، دعوة فاجرة لهدم هذا الماضي العظيم والمشرف برمته.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " ومثل هذه المسألة الضعيفة، ليس لأحد أن يحكيها عن إمام من أئمة المسلمين، لا على وجه القدح فيه، ولا على وجه المتابعة له فيها، فإن في ذلك ضربًا من الطعن في الأئمة واتباع الأقوال الضعيفة" ...ثم قال: "وبمثل ذلك صار وزير التتر يلقي الفتنة بين مذاهب أهل السنة، حتى يدعوهم إلى الخروج عن السنة والجماعة ويوقعهم في مذاهب الرافضة وأهل الالحاد.."

بعض الشباب قرأ لي مقالا وكنت أقدر فيه بعض أئمتنا وأحترمه، وأنزله منزله اللائق به ببعض الألفاظ القيمة الفخمة، ولكن صاحبنا كان من هذا النوع الذي ابتلي ببغض تراثه وأمته وحضارته، وقريبًا يكره دينه وينفك عنه ومنه، لم يعجبه ما قلت واتهم أقوالي بأنها تقديس للبشر، ومغالاة في التعامل مع الأشخاص الذي هم في حقيقتهم بشر كأي بشر.!

أحيانا يتصور الذين يرتعون في الوحل والقذارة أن كل البشر مثلهم قذرون موحولون، ولا يتصورون أنه يمكن أن يكون في هذا العالم أبدًا من يحقق معالم الطهارة، حتى وإن علموا وأيقنوا أن الدنيا يوجد بها طاهرون مثاليون، فإنهم يبغضونهم ويقاومونهم ويصممون أنهم أنجاس مثلهم، حتى لا يكون هناك من يتفضل عليهم أو يذكرهم بعارهم وقذارتهم.

وعلى هؤلاء ينطبق الحديث، فهم يريدون هدم هذه الحضارة الطاهرة، حتى يكون الجميع أنجاس مثلهم في العقل والفكر والفهم والجسد.

المرأة في حياة العلماء

بعض المفكرين والعلماء والأدباء والحكماء والمثقفين ينظرون للمرأة كونها ملهمة لما يبدعون ويفكرون وينجزون، وأنها خير معوان على طريق العلم والبحث والثقافة، تجد هذا كما ذكرنا كثيرًا في أناس أعلنوا على الملأ شكرهم لزوجاتهم، وأنهن السبب الكبير فيما وصلوا إليه، وأنهن السند الضخم الذي ركنوا واعتمدوا عليه في مسيرتهم الفكرية..

والحق أن المرأة التي تؤمن بزوجها المفكر، فإنها تُسهم إسهامًا كبيرًا في تأدية رسالته، وبلوغ غايته، وارتفاع عبقريته، حينما تحمل عنه كثيرًا من مشاق الحياة وشواغلها ليتفرغ لعمله وإبداعاته.

دائما ما أقف متأملا أمام هذا الإهداء الذي كتبه أنيس منصور لزوجته في مطلع كتابه (في صالون العقاد كانت لنا أيام) حيث كتب يقول: (إهداء.... إلى التي لولا تشجيعها ما كان السطر الأول في هذا الكتاب، ولولا تقديرها ما اكتملت هذه الصفحات.. امتنانًا عميقًا وحبًا أعمق: إلى زوجتي... أنيس منصور)

وأمام هذا النص الذي ينكر تمامًا ما أشيع بأن أنيس منصور من أعداء المرأة، وممن ينظرون إليها على كونها شيطان رجيم.!

هل لك أن تتخيل أن قطاعًا من العلماء وقفوا موقفًا سلبيًا من المرأة، فلم يرد عنهم تزوجوا واقترنوا بامرأة يجعلون منها شريكة حياتهم، وما كان ذلك لعلة فيهم أو لمرض مانع، وإنما لأن العلم كان روحهم وطلبه كان همهم، فمن نهمهم له وحبهم فيه، صرف أرواحهم عن كل ما سواه، وشغل أمانيهم عن كل ما عداه، حتى غريزتهم وشهواتهم، ذابت في حبهم لطلب العلم الذي تحول بقدرة الله أن يكون شهوتهم الأولى ولا شهوة غيره.!

بعض الناس أول ما يجري في ذهنه حينما يسمع عن هؤلاء العلماء، أنهم مصابون بالعجز الجنسي، ولكن القصة أكبر من هذا، وتتضح إذا ما نظرنا للكم الهائل والضخم الذي تركوه وراءهم من تراث مبهر في حياة الأمة، فابن تيمية مثلا لم يتزوج، وقد ذكر بعض المؤرخين أنه كتب للمسلمين

ستة آلاف كتاب، فقل لي بربك: رجل كتب عددا من المجلدات في فترة بسيطة من الزمن، ماذا تتصور من قدرته وجهده؟!

كذلك الإمام النووي – عليه رحمة الله تعالى – ألفَّ كتبًا عظيمة، بالرغم من أنه مات في الخامسة والأربعين من عمره، أيضًا ترك مكتبة عامرة، قد لا تجد في الشافعية كلهم من وصل إلى هذا المستوى من القدرة على التأليف والنظر في المسائل والترجيحات وغير ذلك، وكذلك الإمام الطبري.

فهؤلاء الأعلام الكبار الذين تفرغوا بقوة للعلم، قدموا لنا تراثًا هائلاً وكمًّا هائلاً من العلوم والمعارف، قد لا تتيسر لغيرهم ممن كانت له ارتباطات عامة كسائر المسلمين.

وهم ينظرون للزواج على أنه سنة وليس فرضًا فقد قال صلوات ربي وسلامه عليه (النكاح من سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني) وعلى هذا رأوا أن يستغنوا عنه، لأن فيه شغل عظيم عن غاية أسمى وأعظم، ومعنى قوله فمن رغب عن سنتي أي رغب عنها إلى طرق أخرى محرمة.!

وفي زماننا الحديث كان الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وهو آية في العلم، ومن هؤلاء الذين شغلهم العلم عن المرأة والتفكير فيها، ولما فوتح في هذا الأمر قال: إنه يؤثر العلم والدواة على العذارى الفاتنات وأخذ ينشد شعرا يقول فيه:

دعاني الناصحون إلى النكاح * غداة تزوَّجتْ بيض الملاحِ**

فقالوا لي تزوج ذات دلٍّ * خلوب اللحظ جائلة الوشاحِ**

تبسم عن نوشرة رقاق * يمج الراح بالماء القراح**

كأن لحاظها رشقات نبل * تذيق القلب آلام الجراح**

ولا عجب إذا كانت لحاظ * لبيضاء المحاجر كالرماح**

فكم قتلت كميًّاذا دلاصٍ* ضعيفاتُ الجفونِ بلا سلاحِ**

فقلت لهم دعوني إن قلبي * من العي الصراح اليوم صاحي**

ولي شغل بأبكار العذارى * كأن وجوهها ضوء الصباح**

أراها في المهارق لابسات * براقع من معانيها الصحاح**

ولعلنا نجد العزوف عن الزواج كثيرًا ما يكون في حق العلماء، أما الأدباء والشعراء فلا تجد فيهم هذا بكثرة، لأنهم مبدعون وملهمون، والالهام والإبداع يحتاجان للمرأة لأنها عنوان الجمال...

هناك شخصيات علمية وفكرية كبيرة قديمة وحديثة عزفت عن الزواج، وكان منهم ابن النفيس، المكتشف الأول للدورة الدموية بجسم الإنسان، وله إسهامات كبيرة في مجال الطب البشري وعلم وظائف الأعضاء، حيث وضع نظريات يعتمد عليها العلماء حتى الآن.

ويعد كتابه الشامل في الصناعة الطبية من أضخم الموسوعات الطبية التي كتبها شخص واحد في التاريخ الإنساني، وتمثل هذه الموسوعة الصياغة النهائية والمكتملة للطب والصيدلة في الحضارة العربية الإسلامية بالعصور الوسطى.

انظر إلى بعض هؤلاء العباقرة الذين عزفوا عن المرأة ولم يكن لهم نصيب منها:

إسحاق نيوتن

كان له الفضل في اكتشاف قوانين الجاذبية وأسس علم الرياضيات والفيزياء، ويعد أحد أعظم علماء التاريخ لإنجازاته العظيمة في مجال العلوم.. لم يتزوج نيوتن، ولعل السبب كما ذكره البعض شخصيته الانطوائية الخجولة الناتجة عن طفولته البائسة، بسبب الإهمال في التربية الصحيحة من قبل الوالدين، وربما أنه لم يملك الوقت لفكرة الزواج لانشغال عقله بالاكتشافات والاختراعات.

بيتهوفن

أصيب بالصمم في نهاية حياته، حتى إنه لم يسمع صوت تصفيق الجمهور بعد الانتهاء من سيمفونيته التاسعة، عاش بيتهوفن ومات محبًا للموسيقى حتى شغله ذلك الحب عن حب النساء والزواج بهن.

أبو العلاء المعري

شاعر عباسي وفيلسوف عالم بالأديان والمذاهب وفي عقائد الفرق، وكان آية في معرفة التاريخ والأخبار، وقال الشعر وهو ابن ١١ سنة، لقب بـ(رهين المحبسين) أي حبيس العمى والبيت، وذلك لاعتزاله الناس.. كان زاهدًا في الدنيا، معرضًا عن لذاتها لا يأكل لحم الحيوان، ولا ما ينتجه من سمن ولبن أو بيض وعسل، ولا يلبس من الثياب إلا الخشن، ولم يتزوج المعري.

العقاد

كان غزير الثقافة ذا حس أدبي عالي، مما جعله ينافس الكبار في زمانه، حتى عد من رموز الأدب واللغة في القرن الـ٢٠.. واختلفت الأقوال وتباينت في سبب عزوفه عن الزواج، رغم أنه كان مرهف الحس ورقيق المشاعر، ولكن قد يكون ذلك ضريبة انشغاله بالعلم والأدب حينئذ.

الفتية المتطاولون

بعض أبناء التيار السلفي وأتباعه وشبابه تجدهم أسرع الإسلاميين طعنًا في العلماء وتطاولا وتجاسرًا عليهم، بل ووقاحة منقطعة النظير يبدونها إذا ما جاء ذكر أحدهم..

وقد يكون العالم ذا كفاح كبير ضخم في سبيل الدعوة والانتصار للإسلام، لكن كل ذلك لا يعبأ به هذا الشباب الأهوج، الذي لم يتعلم الأدب مع العلماء، واحترام تاريخهم الديني، وبلاءهم الدعوي.

ومن المضحك أنك إذا نظرت لهذا العائب، وحاولت أن تبصر له مكانة في الدين، فإنك تجده لا يساوي شيئا أمام من يهجوهم، بل تجد أحدهم لا حصيلة له من العلم والفهم، والفقه إلا أنه قرأ كتابًا أو كتابين، أو حفظ حديثا وآيتين، وظن أن هذا القدر الضئيل القليل، لا يؤهله للفُتيا فقط، وإنما يؤهله للحكم على العلماء، أصحاب الفضل والسبق في ميدان الدعوة.!

إننا نلمس وقاحة منقطعة النظير لا يمكن أبدًا أن نتخيل أنها من المنهج النبوي في شيء، ولا من الأدب النبوي في شيء، وإنما منبعها الأساس من الغرور والكبر والجهل وفقد الأدب والمروءة والذوق.

بل الأنكد أن شيوخ السلفية من يدربون شبابهم على هذا الخطأ وهذا السوء، ويعطون لهم الضوء الأخضر لينطلقوا يرددون هذا الهرف عن جهل وغباء، وبلا رحمة أو إعذار.

والسلوك الإسلامي في تقييم الناس، علمنا أن نكون دومًا منصفين فما كان من عيب نذكره، وقبل أن نذكره نبحث عن الأسباب التي دفعت إليه وأوجدته، ولا نتصيد الشبهات ونطير بها فرحين لأن نشوه ندًا لنا على طريق الله تعالى.

يقول تعالى: (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك) [1] وهكذا يتحدث الله تعالى عن أهل الكتاب الذين ليسوا بمسلمين، فما أدراك حينما نتحدث عن المسلمين؟! لقد أقر الله تعالى حسناتهم ونوه بها، قبل أن يذكر سيئاتهم أي قدم الحديث الحسن على الحديث السلبي، وهي إشارة تعلمنا كيف نتعامل مع بني الإنسان حتى وإن اختلفوا معنا في ديننا.؟

نعم نقولها بوضوح: إن الخطأ اليسير مغتفر في جانب الخير الكثير، وهو ما أشار إليه بن القيم في مفتاح دار السعادة بقوله: (من قواعد الشرع والحكمة أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر فإنه يُحتمل منه ما لا يُحتمل من غيره، ومن هذا قول النبي ﷺ لعمر: (وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم)

يقول فيه الإمام ابن القيم: "من له علم بالشرع والواقع يعلم قطعاً أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة، وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور، بل ومأجور لاجتهاده، فلا يجوز أن يُتبع فيها، ولا يجوز أن تُهدر مكانته ومنزلته في قلوب المسلمين" [2]

وقال ابن القيم كلاما مهما جدا فى سياق تعليقه على العالم الشيخ اسماعيل الهروى صاحب أصل مدارج السالكين الذي شرحه ابن القيم وقد كانت له هفوات فقال رحمه الله: "فلا توجب هذه الزلة من شيخ الإسلام، يقصد هفوات أبي إسماعيل رحمه الله، قال: "لا توجب إهدار محاسنه

[1] - آل عمران:٧٥

[2] - إعلام الموقعين عن رب العالمين

وإساءة الظن به، فمحله من العلم والإمامة والمعرفة والتقدم في طريق السلوك المحل الذي لا يُجهل، وكل أحد فمأخوذ من قوله ومتروك، إلا المعصوم ﷺ والكامل من عُدّ خطؤه..)

وحينما جلد النبي ذلك الصاحبي الذي شرب الخمر مرارًا وكان يلقب بالحمار قال أحد القوم: اللهم العنه فما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ: "لا تلعنوه فو الله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله"

وما أجملها من كلمة وما أرقاها، كلمة طاهرة صافية سامية، تحتاج من شباب السلفية أن يعيشوا ويتوقفوا معها ويتأملوها كثيرًا.

ويقول سعيد بن المسيب: "ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، فمن كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله" [1]

ويقول الحافظ بن حجر: " والمنصف من اغتفر قليل خطأ المرء في كثير صوابه"

ويقول الامام الذهبي في ترجمة بن خزيمة: " ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده مع صحة إيمانه وتوخيه لاتباع الحق أهدرناه وبدعناه، لقل من يسلم من الأئمة معنا، رحم الله الجميع بمنه وكرمه" [2]

وما أعجب ما قال إمام دار الهجرة: " ما في زماننا شيء أقل من الإنصاف" ولكن قال هذا وهو من أصحاب القرون الأولى، فكيف به لو شاهد زماننا الذي تنكر لخلة الانصاف فصارت لا يقيمها إلا من تيقظ ضميره وغلب على هواه دينه.؟!

أقزام تجابه القمم

كلما ازددت علمًا ومعرفة كلما ازددت ضيقًا وألما.. منذ لحظات كنت في جلسة مع بعض المحبين أحاول إقناعهم أن العقاد كان ضخمًا كبيرًا وعملاقًا عظيمًا.. وأن محمد عبده كان إمامًا في الدين، وزعيما للإصلاح.. قلت لهم: لم أتخيل يومًا أنني سأكون في جلسة أحاول إقناع من فيها بعبقرية الرجلين وهم يأبون ذلك.!

[1] - البداية والنهاية لابن كثير
[2] - سير أعلام النبلاء

ومن شدة إنكاري عليهم وثورتي لشيء أراه أشد ظهورًا من الشمس في رابعة النهار.. أُتهمت بأنني مجادل في حوار عقيم، أستقل فيه بالحديث دونهم.. وليتهم يعذرونني، فما يثار شيء يحار فيه العقل، وتئن له الثقافة.!

قال أحدهم: إن العقاد لم يكن يصلي.. وقال آخر: ماذا قدم محمد عبده للدين والعلم؟!

لم أعرف بماذا أتكلم وبأي شيء أدافع! لأن ما قيل أشبه عندي بما أعرف من جهود الرجلين بمن يقول: بماذا أفادنا الماء والهواء، وبماذا نفعنا ضياء الشمس.؟!

ماذا تفيدنا حياة العقاد الشخصية، أمام قلمه الذي نصر به الإسلام، ودافع عنه ضد خصومه، وأسهم في بعث تراثه وإحياء قاماته ورموزه؟ لتكن له حياته ولنا ثمار قلمه!

قال القائل ساخرًا مستهزئًا: إن العقاد الذي كتب سارة وذكر فيها الحب والعربدة..

قلت له: أي سارة؟! إنني أحدثك عن الرجل الذي كتب العبقريات، وحارب الشيوعية، وألف كتاب التفكير فريضة إسلامية، وكتاب حقائق الاسلام وأباطيل خصومة، وكتاب الإسلام في القرن العشرين.. ورحم الله مولانا محمد الغزالي الذي قال: لا يكتب عن العباقرة إلا عبقري.!

وأذكر أن المفكر المسلم الكبير دكتور عماد الدين خليل، قد ألف كتابًا ضخمًا سماه (قالوا عن الإسلام) جمع فيه أقوال مفكري الغرب وعلمائه وأدبائه عن الإسلام، ومدى انبهارهم به.. فهل نقول عنهم هنا: إنهم كفار لا قيمة لكلامهم؟!

أما محمد عبده فلا زالت ترن في أعماق وجداني ما قاله فيه جمال الدين الأفغاني، حينما نفي من مصر وهم الناس بوداعه فقال لهم: تركت فيكم محمد عبده وهو أعز لمصر من أسطول! تركته فيكم وفيه الكفاية لمصر!

الرجل الذي جدد في الدين، وتزعم الإصلاح، وحارب الاستعمار والاستبداد، وخرج تلاميذ ملأوا طباق الارض علمًا وإصلاحًا.. حتى كان شيخنا الغزالي يلقبه بالرجل الضخم، وساق إليه الرافعي كتابه وحي القلم، ليكتب له مقدمته التي شبهه فيها، بأنه يقوم في الأواخر مقام حسان

في الأوائل.. وكان رشيد رضا من تلاميذه النجباء، الذين خلدوا ذكره وانطلقوا عبر المنار لتوعية الأمة بفضل جهوده وتوجيهاته.

لقد تبين لي أمران خطيران أولاهما.. من ينشؤون في رحاب التيارات السلفية، ونظرتها الضيقة التي تحارب كل جديد وتطمس كل إبداع، ولا ترى غير الإمامين ابن تيمية وابن حنبل، وما دونهما لاقيمة له ولا مقام.

والأمر الثاني أن تتثقف عند حد معين، وفي لون معين، ثم تقف عند ذلك، وتتخيل أن ما حصلت عليه يؤهلك للفتوى والتنظير والحكم على كل من حولك، فلا تؤمن ببحث، ولا يدخل في قناعتك إنك يمكن أن تكون من المخطئين.

كانت البداية عندما هوجم محمد عبده، فقلت لهم: ألم تقرؤوا ما كتبه العبقري العقاد في كتابه القيم عن الإمام، حتى تعرفوا جهوده؟ فقالوا: وما العقاد وأي عملاق هذا؟ فلا العقاد عملاق، ولا محمد عبده إمام؟!

ثم قلت لأحدهم وكان شاعرًا، ألا تعرف ما قاله شوقي أمير الشعراء في رثاء الإمام محمد عبده حينما قال:

مُفسِّرَ آي الله بالأَمس بيننا * قم اليومَ فسرْ للورى آيةَ الموتِ

رحمتَ، مصيرُ العالمين كما ترى* وكلُّ هناءٍ أو عزاءٍ إلى فَوْت

هو الدهرُ: ميلادٌ، فشغلٌ، فمأْتمٌ * فذِكرٌ كما أَبقى الصَّدَى ذاهبَ الصَّوت

وما أن تلوت الأبيات حتى قام البهلول الذي بجواره وقال: شوقي وما شوقي؟ أليس هذا الذي مدح الخمر وقال مشتاقة تسعى إلى مشتاق؟!

هذا الذي يجهر بالفسق علنا في الشعر.

فقلت إليه خذ هذه إذن حتى أرد عليك بما يفحمك.. هل تعرف الشيخ الشعراوي؟ فقال ومن يجهله؟ فقلت له: انظر ما نقل عنه في موقف رواه بنفسه في إحدى ندواته، قال فيه: «إنه كان في سن الشباب وجاء إلى القاهرة بصحبة صديقه، لديه علم دائم بمكان تواجد شوقي، فاصطحبه

ومعه أصدقاء آخرون إليه في «عش البلبل» عند الهرم، وعرفه عليهم بأنهم من أشد المعجبين بشعره، والحافظين له، وأنهم يودون رؤيته فقط».

الشيخ الشعراوي يتابع: فسألني شوقي: ما الذي تحفظه عني؟ فذكرت له ما أحفظ له من الشعر، فسألني: وما الذي أجبرك على حفظ كل هذه القصائد؟ فقلت له: لأن والدي كان يمنحني ريالاً عن كل قصيدة أحفظها لك.

الشعراوي عاتب شوقي عتاب المحبين لـ بيت قاله شوقي في وصف الخمر بعد نهاية شهر رمضان جاء فيه:

رمضان ولى نهاتها يا ساقي* مشتاقة تسعى إلى مشتاق.

فقال الشعراوي: المعلوم أن رمضان شهر طاعة وعبادة، فبدلاً من نصح الناس على المداومة عليها، تُظهر في هذا البيت مدى التعطش إلى الخمر والشوق إليها!

شوقي ضحك كثيراً ثم قال للشيخ ألست حافظاً للقرآن؟ فرد عليه الشعراوي: نعم فقال له: ألا تعرف الآية التي تقول: «وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ* أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ* وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ» فقال الشعراوي: كان ردًا أفحمنا.. وبعدها بستة أشهر مات رحمه الله.

التآمر على القيادة المؤمنة

لقد قامت الحرب على كل ما هو إسلامي، وكان هناك بغضًا شديدًا لقيادة العلماء لزمام الأمور، ورغبة قوية لإزاحتهم من الساحة، وإزالتهم من الصورة؛ والغاء حضورهم الجماهيري.. فكل شيء مقبول، وكل كلام مسموع، إلا ما كان موسومًا بالصبغة الإسلامية.. لقد كان هناك تخطيط واضح ومعلوم لتشويه العلماء، وامتهان مكانتهم، والحد من سلطتنهم، وإفساح المجال للقيادات المنحلة، لتمثل الأمة وتقود الجماهير.. يقول الدكتور (محمد رجب البيومي) في كتابه عن إمام العربية الأكبر (مصطفى صادق الرافعي):

"ونحن نتساءل هل نال المدافعون عن الحكم الإسلامي، بعضًا من الحظوة التي ينالها المنحرفون؟ إننا نلتفت ذات اليمين وذات الشمال، فنجد أصحاب الانحراف يتبوؤون أرقى

المناصب، ويتصدرون الصفحات الأولى في أمهات الصحف، ويُنتشر لهم دوي مزعج في أدوات الإعلام المختلفة، بينما يحاول أنصار الفكرة الإسلامية نشر آرائهم، فتضن الصحف عليهم بمساحة صغيرة تعلن عن رأيهم الصحيح، وتكتفي بتلخيص الرد إذا جاء من مسؤول كبير! حتى صرح شيخ الأزهر شاكيًا من إهمال الصحف لردوده! فإذا اشتكى شيخ الأزهر وهو الرأس الأعلى للإسلام في مصر من إهمال ردوده القاطعة، فبماذا يُعامل من دونه من العلماء والدعاة وهم يسمعون اللغو الشائن، ويقرؤون السفه المنكر، ثم تدفعهم الغيرة الإسلامية إلى إحقاق الحق، فلا يجدون المجال المتسع للنشر! بل يجدون من يرميهم بالتعصب والتزمت دون حياء.. أذكر أن جمعية الشبان المسلمين عند تأسيسها الأول، قد صادفت حربًا ضارية لا لشيء، إلا لأنها ستكون جمعية إسلامية في بلد إسلامي! مع أن جمعيات أخرى تنسب لطوائف دينية تجد التأييد التام، والمعونة المطلقة، ونحن لا نمنع أن تنتشر الجمعيات الدينية إسلامية وغير إسلامية، لتدعو إلى الفضائل الإنسانية كما رسمتها الأديان الصحيحة، وإنما نمنع أن تعلو الصيحات عند إنشاء جريدة إسلامية أو جمعيات للشبان المسلمين، وكأننا بذلك نهدم بناء شامخًا، ورسوا حصينًا يحمي البلاد.!"[1]

ولعل هذا ما ظهر بوضوحٍ شديد في صراع الاستعمار الإنجليزي مع المقاومة المسلمة في الهند، حيث أدرك أنه من المستحيل أن يستسلم المسلمون ويرضخوا لسياسة الأمر الواقع، وفي ذلك يقول الحاكم البريطاني في الهند (النبرو): (إن العنصر الإسلامي في الهند عدو بريطانيا اللدود، وإن السياسة البريطانية يجب أن تهدف إلى تقريب العناصر الهندوكية إليها، لتساعدهم في القضاء على الخطر الذي يتهدد بريطانيا في هذه البلاد).

لقد علمت بريطانيا أن بقاءها في الهند لن يُكتب له الاستمرار في ظل مقاومة إسلامية صُلبة ترفض الذوبان والانبطاح والتوسل للمحتل، فلجأت إلى تنفيذ سلسلة من الخطوات الرامية إلى خلخلة هذه المقاومة وكسرها، عبر بعض الخطوات التي كان منها:

[1] - مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن .د- محمد رجب البيومي

"*إقامة حزب المؤتمر الوطني الهندي، ليحي القومية الهندوسية الوثنية القديمة، لتكون عوناً لبريطانيا في محاربتها للإسلام والمسلمين في شبه القارة الهندية.

* تأسيس الحركات الهدامة التي تتسمى باسم الإسلام مثل القاديانية، التي نفت مبدأ ختم النبوة، ونبذت الجهاد ومقاومة المحتل، ودعت إلى طاعة الإنجليز والقبول بسياسة الأمر الواقع.

* تزوير التاريخ الجهادي للأمة المسلمة عن طريق نشر الكتب والمؤلفات التي تنبذ الجهاد والمقاومة، ومن ذلك كتاب المستشرق، تومس آرنولد: الدعوة إلى الإسلام.

*إبعاد العلماء وعزلهم عن قيادة وتوجيه الجماهير المسلمة، وإيجاد زعامات قومية إسلامية، تفتخر بقوميتها على حساب انتمائها إلى دينها وإسلامها.

وكان غاندي الهندوسي الديانة، هو الورقة التي لعب بها المستعمر، لكسر شوكة المقاومة الإسلامية، حيث قام (ريدينج) الحاكم البريطاني للهند بالاجتماع (بغاندي) وقال له: (إن مصدر الحركة الاستقلالية في الهند هم المسلمون، وأهدافها بأيدي زعمائهم، ولو أجبنا مطالبكم، وسلمنا لكم مقاليد الحكم، صارت البلاد للمسلمين، وإن الطريق الصحيح هو أن تسعوا أولاً لكسر شوكة المسلمين، بالتعاون مع بريطانيا، وحينئذ لن تتمهل بريطانيا في الاعتراف لكم بالاستقلال، وتسليم مقاليد الحكم في البلاد إليكم).

وبناء على التنسيق والتفاهم الذي تم بين (ريدينج) و(غاندي)، قامت بريطانيا بالقبض على الزعماء المسلمين المنادين بالاستقلال، فأصبح الطريق ممهدًا أمام (غاندي) الذي طلب من هيئة المؤتمر الإسلامي الهندوسي، بأن تُسلم له مقاليد الأمور بصفة مؤقتة، نظرًا لقبض بريطانيا على الزعماء المسلمين، وعندما عقد أول اجتماع برئاسة (غاندي)، نفذ ما تم الاتفاق عليه مع الحاكم البريطاني (ريدينج)، وأعلن أن الوقت لم يحن بعد لاستقلال الهند."[1]

ويقول الاستاذ أنور الجندي: "غاندي سرق الحركة الوطنية من المسلمين. والهندوسي الهندي المتعصب الذي أخفى هندوسيته البغيضة وراء المغزل والشاة. وكان أول سياسي طالب بتأجيل

[1] - أسطورة غاندي – د. خالد الغيث - موقع صيد الفوائد

الاستقلال منادياً بمهادنة السلطة وعدم مناوأة حكومة الاستعمار، لقد بدأت الحركة الوطنية لتحرير الهند في أحضان الحركة الإسلامية وقد أزعجت الاستعمار البريطاني هذه الخطوة فعمد إلى القضاء عليها بأسلوب غاية في المكر والبراعة نحى بها المسلمين عن قيادة الحركة الوطنية وأسلمها إلى الهندوس، وأجراها على الأسلوب الذي سيطر على الهند بعد ثورة ١٩٥٧ التي قادها المسلمون كان حريصاً ألا يتحقق للمسلمين السيطرة على الهند بعد أن ظلت تحكم الهند أكثر من خمسمائة عام مرة أخرى بعد أن أسقط دولتهم .."[١]

لقد كان لعلماء الأزهر دورهم في التنديد والاستنكار بسقوط الخلافة الإسلامية على يد الطاغية اللعين أتاتورك، لقد صدحوا بأقلامهم وأصواتهم يدينون حربه للشريعة، وطمسه لمعالم الإسلام، وقضائه على مظهر القوة فيه وهي الخلافة الجامعة، التي كانت تمثل شريان الوحدة بين بلاد الاسلام وشعوبه.

وحينما هب العلماء هذه الهبة المدوية، فضحًا لهذا العميل المخرب، كانت هناك ردة فعل قام بها العملاء وأذناب الاستعمار وأعداء الهوية الإسلامية، فهاجموا العلماء بلا هوادة وطعنوا في ذممهم وشخوصهم، وادعوا كذبًا أنهم كانوا على مر العصور سدنة الأنظمة، ومطايا الظالمين ودعاة المستبدين، كما رموا علماء تركيا بأوابل البهتان ونسبوا إليهم الرشوة والفساد والتملق وسلب الحقوق بدعاوى كاذبة، لم يقدموا عليها دليلاً واحدًا يبين صدقها.!

فكان لابد من استجلاء الحقيقة، والرد على البهتان، وفضح هذا الكذب البواح، الذي يشوه حقيقة العلماء ويظلم دورهم التاريخي في حياة الأمة، وهو ما قام به زمرة من العلماء والكتاب والأدباء الذين أعادوا للأذهان بأقلامهم هذا التاريخ البطولي لعلماء الاسلام الذي أُهمل وشابه الكذب وتناسته الاجيال، وكان على رأس هؤلاء وألمعهم الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي الذي خطط ليعيد إلى الساحة هذا التاريخ المغمور الذي تضج به كتب الطبقات

[١] - رجال اختلف فيهم الرأي – الاستاذ أنور الجندي

والتراجم ولا يعرفه المسلمون.. تاريخ يحكي شمم العلماء المسلمين وجسارتهم في مواجهة السلاطين الغاشمين، وأهل البغي من الحكام المستبدين فوقفوا للمنكر وتحدوا أطماع الطامعين. لقد كتب عن سعيد بن المسيب، وعامر الشعبي، وابن حنبل والعز بن عبد السلام والحسن البصري وغيرهم من علمائنا الأبطال، والفقهاء المغاوير، وأصحاب الشجاعة النادرة، ممن كان له دويه وأثره في الساحة الثقافية والسياسية، حتى التفت القاصي والداني، لما كانت تجهله العقول، وتغفله الأذهان.!

بل أوحى فعل الرافعي لكثير من الكتاب والأدباء، كشف النقاب عن ثقافتنا الإسلامية، وما فيها من بطولة وفداء، ونماذج حري بالبشرية أن تتعلم منها شِيم التحدي والإباء.

البطولة المدهشة

لقد كتب (توفيق الحكيم) مسرحيته التاريخية (السلطان الحائر)، وقام فيها بتصوير المواقف الشجاعة لسلطان العلماء (العز بن عبد السلام)، التي تحدى فيها نفوذ الأمراء والملوك العتاة الظالمين، وبين فيها إلى أي حد، قدم هذا العالم الجليل حياته فداء للحق، وعرض نفسه في سبيل مبادئه، للهلكة والمضرة والخطر العظيم، بصورة لا مثيل لها بين مصلحي الأمم وزعماء الشعوب.! وكان عدد كبير من القراء والمثقفين، مندهشون لهذه البطولة النادرة التي قدمها العز بن عبد السلام.. وظنوا أنها لم تكن لغيره من العلماء، وأنها كانت شاذة في تاريخهم وحياتهم.. ولو أنهم قلبوا هذا التاريخ، لرأوا فيه أن العزة والبطولة والتحدي والثورة ومواجهة الباطل، لم تولد إلا على يد علماء الإسلام، ولم يحفل بالكثير منها، كما يحفل تاريخهم الناصع وحياتهم المباركة.!

إن الدعاة العاملين، والعلماء الربانيين، كانوا الهدف المباشر لأعداء الإسلام، حيث كالوا لهم التهم ورموهم بالشبهات حتى يُزعزعوا ثقة الناس فيهم، ويتخلوا عنهم ولا يؤمنون بهم، كقيادة تقودهم وتتبنى قضاياهم، وتهتم بشؤونهم، ويتركون طاعتهم، ولا ينقادون لهم في شيء.. ولقد كان من أكثر ما يعتمدون عليه في هدم هذه الثقة، هو رميهم بالإشاعات الكاذبة، واصطناع

السمعة السيئة، التي تُحقق خبثهم المنشود، وإظهارهم بمظاهر الاستهزاء، لتسقط هيبتهم في النفوس.. "ففي فترة الستينات حيث ركزت الحرب ضد هذا الدين تركيزًا أثيمًا لم يسبق له نظير، حيث خرج في الساحة سيل من النكات على العلماء أو الشيوخ أو المسلمين المتمسكين بدينهم مما كان له الأثر البالغ والسيء في النفوس، وأثره التهديمي الواضح في مقامات الأمة، وقد ساهمت ريشة رسامي الكاريكاتير في هذه الحملة، فركزت على رجالات الإسلام وعلمائه، فالعلامة الشيخ (حسنين مخلوف) كانت الكاريكاتيرات التي تقصده وتلمزه، تُطلق عليه اسم الشيخ متلوف، وقد رسم في إحدى المرات أحد الشيوخ في موقف غير لائق بين راقصات يشاركهن الرقص، ليوحي للقاريء جملةً من الإيحاءات السلبية ضد الدين ومن يدعون إليه أو يرتبطون به.

كما صدر في فترة من الفترات ملحق كاريكاتيري لإحدى المجلات الدينية! يصور الدعاة مجرمين أعوانًا للشيطان وقتلة سفاحين متصلين بالأعداء والقوى الأجنبية، ومخلفات تلك المرحلة لا تزال في أفلام السينما حين تصور الشيخ أو المأذون أو المتدين أو رجل الطريقة.. إلخ.. مأفونًا من المأفونين، غريبًا عن الحياة والناس، حتى في طريقته في الكلام وملابسه وحركاته وشكله."

لا أعرف كيف ينسب هذا الفكر للإسلام؟ ولا أدري كيف تُلصق به هذه الآراء الغريبة التي يجعلها أصحابها أساس عقيدته وصلب تعاليمه، وهي التي لم تكن في سلوك الصحابة الأماجد، والتابعين الكرام، وعلماء الأمة العظام، على مر تاريخها الرشيد.!

لقد كان رسولنا الكريم ﷺ هو المحرر الأعظم الذي لم تعرف الدنيا مثله في حجمه وقدره هدمًا للعبودية وتسلطًا على القهر والاستبداد.. كان عدوًا للظالمين، سيفًا على الطاغين، داعية للثورة على كل طاغية جبار، لقد قال يومًا لأصحابه: (أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو

[1] - الاشاعة للدكتور أحمد نوفل. ط دار الفرقان

أمير جائر) وقال يومًا: «سيد الشهداء[1] حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»[2]

هكذا كان رسولنا العظيم ﷺ جاء لتحرير الدنيا، وأرسله الله رحمة للعالمين، ولو تأملنا لفظ الرحمة لعرفنا أن الرسول الكريم لا يمكن أبدًا أن يقبل بأي صورة من صور الظلم والقهر والكبت وإهدار الحقوق، كما ينسب إليه بعضهم بتأويلات خاطئة وظنون معوجة.! إن الصمت والانبطاح والتبعية والتخاذل والخرس والانزواء أمام حاكم ضال ظالم جبار طائش، يحل الحرام ويحرم الحلال ينهب حقوق الأمة وثرواتها، ويسرق قوت الرعية ورزقها، يوالي أعداء الله ويحارب أولياء الله، ويُمكن للصوص والخونة ويمنع أهل النزاهة والشرف.. إنما هي أخلاق مردودة وجبن غير مقبول.

من أين أتى هذا الصمت ومن قال به في تاريخ أمتنا الثائر؟! ألا إن الاستسلام للظلم تحت دعوى طاعة ولي الأمر، ليس من أخلاق الإسلام، ومن يدعي فريتها لم يفهم ما قرأ من نصوص خاصة في أوقات خاصة بظروف خاصة.. ولم يعي مغزاها والغاية منها.. أما الصمت والاستسلام فإنه يُمكّن للظلم، وينمي الجور، ويغذي حكم الطغاة المستبدين.!

أيعقل أن يكون هذا الانبطاح منتسبًا لدين جاء لتحرير الإنسان وقمع هياكل الظلمة وطمس ألوان العبودية.. دين ذمت تعاليمه وأخلاقه كل صور الظلم وأشكال القهر والتجبر والجور؟!

حتى أن كبار الأئمة الذين استشهدوا بها واجتهدوا فيها، كانوا هم أول من وقف في وجه الظلم والخطأ والانحراف وتصدوا لأولي الأمر المتجبرين وواجهوهم بشراسة حازمة وصمود أسطوري لا هوادة فيه..

كثير من المفاهيم المعوجة الخاطئة أصابت أذهان أمتنا وشوهت عقول أبنائها.. إنهم يستنكرون ويتعجبون إن رأوا متدينًا يعمل بالسياسة، أو عالم دين يتكلم في شؤونها، أو يشارك في ملاحمها وصراعاتها، ويواجه قادتها ويزاحم أحزابها.. وهو تصور سخيف وضيع لم يصغه الإسلام

[1] - أورد أبو داود حديث أبي سعيد الخدري ?
[2] - السلسلة الصحيحة

وزعيمه ﷺ.. وإنما جلبه الاستعمار، وساهم في رسم صورته ذيوله من عملاء الإعلام وبقايا الماركسيين والشيوعيين.!

وهي صورة أبعد ما تكون عن صورة العالم الحقيقي، الذي يرتضيه الإسلام، الذي يوجهه ليكون راعيًا للأمة ووليًا لأمرها، وساعيًا في قضاء مصالح أبنائها، حاميًا لهم مدافعًا عنهم فيما يقع عليهم ويصيبهم من جور الحكام وعسف السلطان..

لقد تأصلت هذه الرؤى المعوجة في كثير من الأفهام والأذهان، إلى حد كبير يعيا معه من يريد تصحيحها ورد هرائها.. إن الشيخ له صورة معلومة في حياتنا ومحيطنا الذي نعيش فيه، فهو ذلك الشيخ المسالم الطيب الهادئ الذي إن ضرب على خده الأيمن أدار خده الأيسر، ولا مانع من أن يكون في أحيان أخرى درويشًا يأكل الفتة ويهذي بكلام البُله والمجانين.. إنه ذلك الشيخ الذي لا يتكلم إلا في السلام والأمان والإحسان وأحكام الوضوء وفرائض الغسل.. وتكون جل مهمته في تعليم الناس هذه الأحكام والمسائل الفقهية.. أما أن يوجههم لطريق مصالحهم، ويفتي في شؤون الدنيا والحكم في سياستها، أما أن يتكلم في ثورة ومعارضة، أو ينتقد حكما أو قرارا أو نظاما أو مؤسسة من مؤسسات الدولة، فهو أمر غير مقبول أو مستساغ.!

لقد تعارف الناس في حياتنا المعاصرة على صورة الشيخ بأنه هو ذلك الرجل المعمم الهادئ المستكين الهزيل الضعيف الذي يتكلم في فقه الغسل والطهارة ويتصور أن الفقه هو العلم وهو الدين، وهو الطريق المستقيم، الذي يوصل للجنة دون ما عداه، فإذا تعلمته وعلمته للناس، فقد أديت ما عليك دون أن يكون لك اهتمام آخر بمصالح الأمة وسياستها التي تقوم عليها، وتوجه مصيرها ومستقبلها، ومن ثم فليس من الدين أن تتدخل في السياسة، وليس من الدين أن تخالف الحاكم ولو كان ظالمًا وليس من الدين أن تناطح المستبدين فيما يشتهون وليس من الدين أن تقول لا لكل قرار أو توجه لا يعجبك، أو لا يتوافق مع مبادئك ومنهجك، و يا له من فهم غريب ليس من الاسلام في شيء.!

معركة عيد الميلاد

لم أكن أحب أن أكتب في هذا الموضوع، أو أحوم حوله بحرف أو رأي، لأنني كتبت سابقًا وجهة نظري عن المعركة التي تثار حوله كل عام.!

وأن الخوض والنفخ فيها وتحويلها إلى قضية تشغل الرأي العام مضيعة للأمة، وتفريغ لها من قضاياها المصيرية التي يجب أن توليها اهتمامها الأكبر.

إذن لماذا أخالف اليوم رغبتي وأعيد الحديث في الموضوع المتكرر، والذي صار قضية الموسم وكل موسم؟

هل يجوز الاحتفال بعيد رأس السنة الميلادية؟

هل يجوز تهنئة المسيحيين به؟

نعم أريد اليوم أن أتكلم فيه بعدما رأيت أن المسألة تتخذ طريقًا آخر وصبغة أخرى في ميدان الخلاف، حينما حولها البعض وجعلها طريقًا ومنفذًا لسب أعلام الإسلام والتطاول عليهم، والاستهزاء بهم، واتهامهم بالتخلف والرجعية.. وعلى رأسهم الإمام ابن القيم رحمه الله!

نعم ابن القيم هل تصدق؟!

ابن القيم الذي ملأ طباق الأرض علمًا وزان المكتبة الإسلامية بعظائم المراجع والأسفار النفيسة، التي أضاءت للمسلمين دروب العلم، ومحت عنهم جهالات الخرافة والبدع.

كتب أحد الاصدقاء يقول: (يبقي جاري وصاحبي وحبيبي وتقولي مهنهوش طب غصبن عن أمك، وعن ابن القيم ههنيه كل سنة، وكل اخواتنا وحبايبنا المسحيين بخبر وسلام عيد سعيد.) وأنا اعتبر مثل هذا الكلام، وإن كنت أقدر نية كاتبه وأفرض له خيانة التعبير، إلا أن الجملة في حد ذاتها ثقيلة مدوية، ولها ما وراءها من الأخطار العظام، التي تدعو لطمس تراث العلماء الكبار، الذين رفع الله تعالى مكانتهم وشأنهم وزكى قدرهم لما يقومون به من هداية الناس وإرشادهم للحق والخير وتعظيم الله ودينه.

لا يمكن أبدًا لأي مسلم يعتز بهويته، أن يقف صامتًا أمام أي استهزاء يطال الأعلام العظام، لأنه بداية للتساهل في كل شيء، ونحن مهما قرأنا وعايشنا العصريين المودرن، فإن هذا أبدًا لا يعني أن نلغي سلفيتنا ونتنكر لاعتزانا بأصوليتنا.

لقد أمرنا الدين أن نحسن للناس ونقدم لهم المعروف، ونقول لهم الرشد، ونبرهم من باب الخير والإنسانية.. ونعاملهم معاملة طيبة، وربما نهش في وجوههم ونرأف بهم.. لكن لا يكون ذلك أبدًا على حساب ديننا الذي نعيش له ونعتز به، قبل أن نعيش للمواطنة ونعتز بها، المواطنة شيء جميل ورائع وكريم وطيب، وتضمن الأمن والسلامة للبلاد والعباد، ولكن ليست على حساب الدين والشعائر والمقدسات، والتي في ذات الوقت لا ترفض أو تنكر بنود هذه المواطنة..

قال تعالى: «لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»[1]

نحن فقط بعقولنا الضيقة من نجعل المواطنة ونحصرها من مسألة التهنئة بعيد رأس السنة.

وهنا سؤال لابد منه: لماذا يقرن الناظرون معاملة المسيحي بالحسنى والإيمان بظلال المواطنة وبين التهنئة بعيد رأس السنة.. وكأن الإحسان إلى المسيحيين لن يكون إلا بهذه التهنئة؟

وهنا هل لك أن تنظر معي بشيء من الرفق في الموضوع وننظر له بشيء من المنطق؟

هذه محاولة لفهم اجتهاد العلماء وفهم مرادهم ومن أي شيء نبع مقصدهم!

أنت مسلم موحد بالله تعالى الذي أمرك الله تعالى أن تعلن براءتك من كل شرك وشريك أو إلحاد في دينه، فهل يليق بك أن تبتهج لعيد شركي أو يوم تحيا فيه مظاهر الشرك بالله تعالى؟

هل يليق بك ذلك؟ وكيف تقول لله تعالى حينما تلقاه ويسألك يوم القيامة عن ذلك؟ أنا هنأت من بارك للصليب وهنأته على الشرك.؟

هل ستقول له: يا رب إن نيتي هي المواطنة والتقرب لهم ومعاملتهم معاملة حسنة؟

[1] - الممتحنة: ٨

ما أجهلك وأطغاك وأنت تعلم أن ميدان البر والعدل فسيح في معاملتك لهم... بعيدًا عن يوم عبادتهم وإعلان شركهم.. دعك من هؤلاء العلماء الذين يميعون تعاليم الدين، فالحق أحق أن يتبع.. انظر معي صورة هذا الإنسان الذي يريد أن يشرب الخمر، ماذا بك وأنت تقدم له الكوب؟ ألا تعد شريكا في الاثم؟

ماذا عن هذا الإنسان الذي تقدم له فراشًا وأنت تعلم أن يزني عليه؟ ألا تعد وقتها شريكًا في الاثم؟

قد ترى التهنئة من الإنسانية والجمال والسلام والوئام، وأنا معك لو كان العيد وطنيًا، أو لمناسبة تاريخية، أما أن يكون عيدًا تحيًا فيه الشركيات، فأظن هنا أن الموقف يختلف كثيرًا.

بعض الجهلاء يستعظم كلمة الشرك أو نُطقَنا بها.. ويهوله حتى كلمة الكفار، وذلك لأنه جاهل بدينه أولا، وجاهل ثانيا أنها ذات الكلمة التي يطلقها عليك من تخالفهم في الدين.!

ولعل هذه المشاعر التي من أجلها كان هذا الكلام من العلماء، إنما جاءت من أناس ولأناس يعرفون معنى الدين، ويقدرونه في حياتهم، ويمثل لهم في دنياهم كل شيء، فهم لا يسيرون ولا يتوقفون ولا يقومون ولا يقعدون إلا بالدين.

أما من كانت لديه رقة في دينه، ويأخذ أمر الالتزام بشيء من الاستخفاف، ولا يعظم شعائر الله تعالى، فلن يفرق معه الموضوع وسوف يراه عبطًا وتفاهة، وأننا نقيم الدنيا ولا نقعدها لأمر تافه، لا قيمة له في الدين ولا مستعظم عند رب العالمين، ولعل ابن القيم نفسه قد استلهم هذا المعنى وكأنه كان إرهاصًا ومعرفة بما سيقال بعده، حيث قال في نهاية كلامه: "وكثير ممن لا قدر للدين عنده يقع في ذلك، ولا يدري قبح ما فعل، فمن هنأ عبداً بمعصية أو بدعة أو كفر فقد تعرض لمقت الله وسخطه. "

نعم هذا حال وديدن من لا قدر للدين عنده.!

أجدد مرة أخرى أن الكلام هنا محاولة لفهم اجتهاد العلماء وفتواهم النابعة من صميم الدين، الذي أعلى التوحيد وعظم مقام الألوهية واحترم شعائر الله التي قال الله تعالى عنها: (ومن يعظم

شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) أن الذي لا يعظمها فلا تقوى في قلبه، وإذا كان قلبك لا تعمره ولا تغمره التقوى، فلا تزعجنا وتململنا وتصيح علينا بفلسفتك التي بغت واستفحلت حتى طالت اليوم علماء المسلمين.

أنت بحاجة للفهم والإدراك، ولا تكن كالدبة التي قتلت صاحبها، انظر أخي في أي مقام ومكان تضع قدميك، فلا تحرك ساكنًا في نفسك، إلا أن يكون لله تعالى شاهد عليك، وتسأل نفسك: هل هذا يرضي الله تعالى أم يسوءه؟

كما لا يكن كل همك أن تركز معي أنا، هل أؤيد الحكم أم لا؟ وتبدأ تناقشني فيه وتعترض علي، ولكن حاول الفهم والتبصر.

أدرك أن هذا الكلام لن يفهمه الكثيرون من أهل الأغراض، ولن يحاولوا مساعدتي والوقوف معي لفهم وتقرير ما أريد قوله، والغاية التي من أجلها كتبت، لأننا صرنا في هذا الزمان نقدر الأهواء على حساب الحق.. ولكنها رغم ما نلقى أمامها من عنت، نصر أن ندافع عن تراثنا وقيمنا وقممنا، أمام أي محاولة لظلمها أو السخرية منها أو الهزء بعقليات علماء ربانيين قلما جاد الزمان بمثلهم، وجعلهم الله تعالى نورًا لهذه الأمة ومنقذين من دروب الجهالة المعتمة.

لا تخلط!

شيء معيب أن نجهل عظماءنا وقادتنا ولا نستطيع التفريق بين شخوصهم.. ولو كان أمثالهم في الأمم الغربية، لميزوهم وعرفوهم حق المعرفة، بل تخطوا ذلك التمييز إلى دراسة دقائق حياتهم وطبيعة معيشتهم، كيف كانوا يأكلون ويجلسون ويمشون وينامون؟ ما الذي كانوا يحبون وما الذي كانوا يبغضون؟ وما الذي به كانوا يتصفون به ويتحلون؟!

ولاشك أن لهذا أهمية كبرى في حاضرنا ومستقبلنا، إن حاول أحد الفارغين أن يدعي أن هذا من هراء الماضي، وينكر العودة إليه، فدراسة حياة القادة والزعماء والعباقرة والمفكرين والعلماء، تُلهم حياتنا بطبائعهم العظيمة وخصالهم الراقية لنستدعيها في حياتنا حتى نحاكيهم فيها ونُقلدهم بها.!

وفي الوقت الذي يبرع فيه الغربيون في معرفة قادتهم وزعمائهم وكبارهم، نغط نحن في جهل كبير، ونُخطيء خطأ فادحًا في حق أبطالنا ومفكرينا وعلمائنا، حين لا نعرفهم ولا نميزهم ونخلط بينهم، ولا نكاد نفرقهم من بعضهم.!

وهذا الجهل لا شك هو الذي أتاح لعملية العداون على قممنا وتراثنا في هذا الزمان، وأفسح لها الطريق لتوغل في أهدافها، وتحقق مراميها في تشويه هذه القمم وهذا التراث الذي خلفوه، حتى تخرج أجيالاً لا قدوة أمامها ولا تراث تتفاخر به، ولا عظماء تباهي بهم.. وهذا هو الغرض المقصود والغاية المأمولة.

في تراثنا كثير من العلماء الذين تشابهت أسماؤهم، وتجد أمام هذا التشابه جمهورًا كبيرًا لا يعرف كيف يميزهم، أو يحدد من يقصده منهم، وأكثر الأسماء التي أعيت الجماهير، أو أعياها جهل الجماهير، اسم الغزالي، فحينا تقول: قال الشيخ الغزالي كذا وكذا، يخرج لك ألف معلق ليقول رحمه الله، عندي له كتاب الإحياء أو رأيت كتابه تهافت الفلاسفة، وعندما تقول: قال أبو حامد الغزالي يظهر أمامك من يقول لك: إنه رجل رائع سمعت له خطبة في ميدان مصطفى محمود، أو جامع عمرو بن العاص! ولا يعلم هؤلاء أن هناك فرق بين الرجلين بين أبي حامد حجة الإسلام وصاحب الإحياء الشهير، وبين الشيخ الغزالي صاحب (قذائف الحق) و(الاسلام والاستبداد السياسي) الذي عاصرناه ورحل عام ٩٦م، وأن بين الرحلين قرون ضخمة، تعج بالسنوات الطوال.!

كتبت مؤخرًا مقالاً عن الإمام البويطي تلميذ الإمام الشافعي الذي ثبت في محنة خلق القرآن، ولم يكن أقل جلدا من أحمد بن حنبل، فظن كل القراء أنني أتحدث عن الداعية الكبير الراحل محمد سعيد رمضان البوطي.. بل ربما ظن بعضهم أنني أخطأت في كتابة الاسم بزيادة حرف الياء، وأخذوا يتحدثون عن البوطي المعاصر، وأنا أتحدث عن رجل في العصر العباسي الذي عاين محنة خلق القرآن.!

وحينما ظهر مسلسل قيامة أرطغرل، الذي أنتجته تركيا وأظهرت فيه شخصية ابن العربي صار الناس يرددون ما يقال لهم من خطأ في الترجمة، وصرنا نصحح لهم الأمر بأن التاريخ الإسلامي به

شخصيتين حملا نفس الاسم بفارق معلوم، فالأولى شخصية ابن عربي بدون الألف واللام، وهو الصوفي الشهير صاحب الفتوحات المكية و(فصوص الحكم)، وابن العربي بزيادة الألف واللام وهو صاحب (العواصم من القواصم) وصاحب (عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي) أبو بكر بن العربي المالكي، وقيل كذلك إن الصحيح في ابن عربي الصوفي أنه ابن العربي.

والحق أنني أُعجبت كثيرًا بما نقله مؤخرًا أستاذي وصديقي المبجل اللغوي القدير الأستاذ (أسامة مقلد) على صفحته الفيسبوكية، سلسلة إشارات تحت عنوان (لا تخلط) يظهر من خلالها التوضيح والتمييز بين الأسماء المتشابهة في تراثنا، وتدعونا لتصحيح عملية الخلط الخاطئة، التي يقع فيها الكثيرون وهي في حقيقتها إساءة ظاهرة لحضارتنا ورموزها وكان منها:

١- ابن الأنباري

لا تخلط بين ابن الأنباري وأبو البركات الأنباري.. فالأول في القرن الرابع وهو لغوي، وصاحب شرح المعلقات.. والثاني نحوي في القرن السادس صاحب الإنصاف في مسائل الخلاف، وهو كتاب ماتع!

٢- الترمذي:

لا تخلط بين الإمام أبي عيسى الترمذي المحدث الحافظ صاحب السنن أحد الكتب الستة المعتمدة في هذا الشأن، والترمذي الحكيم صاحب النوادر.

٣- الرازي:

لا تخلط بين الرازي الفيلسوف الطبيب صاحب الحاوي والشكوك، والرازي الأصولي المفسر المتكلم.

٤- ابن كثير:

لا تخلط بين ابن كثير المقرئ، صاحب الرواية، وابن كثير المفسر صاحب كتاب من أصح كتب التفسير بالمأثور، ومن أقومها نهجاً فيما يتعلق بالإسرائيليات.

٥-الجويني:

لا تخلط بين الجويني الأب التائب من الخوض في الكلاميات.. وابنه إمام الحرمين أبي المعالي صاحب البرهان والورقات..

٦- نافع

لا تخلط بين نافع مولى ابن عمر، ونافع القارئ وأحد الراويين عنه ورش المصري.. وكلاهما مدنيان.

٧-الغزالي:

لا تخلط بين أبي حامد الغزالي المشهور بحجة الإسلام.. والغزالي الشيخ الأزهري المعاصر، الكاتب البارع المتفنن في فكره ولغته، وكلاهما محمد.

٨- ابن رشد:

لا تخلط بين ابن رشد الجد (أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد) صاحب كتاب المقدمات لأوائل كتب المدونة والبيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل واختصار المبسوطة واختصار مشكل الآثار للطحاوي وبين ابن رشد الحفيد (أبو الوليد محمد بن أبي القاسم أحمد بن شيخ المالكي أبي الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي) صاحب بداية المجتهد في الفقه والكليات في الطب ومختصر المستصفى في الأصول ومؤلف في العربية

٩- وفي العصر الحديث لا تخلط بين شيخنا الدكتور محمود عمارة استاذ الدعوة وأديب الدعاة وصاحب مصنفات الادب الاسلامي والدعوة وبين المفكر الكبير الدكتور محمد عمارة الشهير.

للكاتب كل التحية والتقدير على هذا التوضيح البين، ولأمتنا الغائبة الجاهلة المتخبطة في أسماء عظمائها وقادتها كل الأسى والأسف على هذا التفريط.!

دعني أقبل يديك !

في صالون الـ(دكتور سعيد إسماعيل على) كلفتني صحيفة (الأسرة العربية) التي كان يرأس تحريرها أستاذنا القدير بدر محمد بدر بتغطية المحاضرة التي يقدمها العلامة الدكتور (محمد عمارة) بالصالون، وكانت فرصة عظيمة لألتقي بالرجل وأشاهده عن قرب وأستمع لفكره النير وثقافته الباهرة، وما أن دخل الدكتور من باب الصالون، حتى وقف الجميع يصافحونه ويحيونه ويسلمون عليه بأيديهم،

ولما جاء دوري مِلت بوجهي وجسدي وانحنيت أقبل يده، وما أن فعلت ذلك حتى ضج المكان وهاج ماج وأرغى وأزيد وثارت ثائرة زمرة من أساتذة التربية، من تلامذة الدكتور سعيد، وصاح أحدهم بقوله: ليه يابني كدا ؟ وهنا وقفت وقلت له قولة ابن المبارك: (تقبيل يد العالم والسلطان العادل سُنة) ولم أكمل المقولة حتى اعترضني الرجل بقوله طب بس بس.. لم يطيق أن يسمع مني تفسيرًا أو تبريراً لفعلتي التي يظن هو أنها منكرة!

والحق أني أكبر العلماء وأقدر المفكرين، وأشعر بامتنان حينما أظهر لهم هذه المعزة وهذا التبجيل، والدكتور عمارة ليس رجلا هينًا في عالم الفكر والثقافة، فهو من هو.. فكرًا ثاقبًا وحجة دامغة وتصانيف عديدة وحجج سديدة ومحاضرات نافعة ومقالات شاهقة.. ويكفي أن قال عنه شيخنا الغزالي رحمه الله: محمد عمارة قلعة من قلاع الاسلام في القاهرة.!

والشيخ الغزالي نفسه كان من أجدر الناس الذين كنت أحب أن أراهم لأقبل يديه، فله في قلبي مكانة كبيرة، بل هو أكثر العماء الذين تأثرت بهم وأفدت من كتبه ومواقفه، وأذكر أن أول من قبلت يده من العلماء شيخنا الدكتور محمد بكر اسماعيل صاحب كتاب الفقه الواضح، وشيخنا المجاهد الكبير العلامة حسن أيوب رحم الله الجميع.. وسيدي وأستاذي وشيخي العلامة الدكتور محمود عمارة رحمه الله رحمة واسعة.

كما أنني وجدت خصلة تقبيل اليد أكثر ما وجدتها، في كلية أصول الدين حينما كنت أدرس بصفوفها، وكان طلبة الدراسات العليا تحديدًا يقبلون أيادي الاساتذة، ولو أن أحدهم قد امتنع عن ذلك، فقد وضع نفسه في موضع مريب، وجر على نفسه ملا يحمد عقباه، وربما فسر ذلك منه بأنه استخفاف بالأستاذ، أو عدم تقدير له ولعلمه.

وإذا كان تقبيل اليد يُزعج البعض، ويرى فيه صورة من تقديس البشر والغلو في تقديرهم، فماذا يقول وكيف به لو رأى الناس حينما مات شيخ الاسلام (ابن تيمية) رحمه الله وقد شربوا ماء الغسل الذي غسل به جسده المبارك؟!

قال النووي في روضة الطالبين: ولا يكره تقبيل اليد لزهد وعلم وكِبَرِ سِنّ

وقال أيضا: وأما تقبيل اليد، فإن كان لزهد صاحب اليد وصلاحه أو علمه أو شرفه وصيانته ونحوه من الأمور الدينية فمستحب، وإن كان لدنياه وثروته وشوكته ووجاهته ونحو ذلك فمكروه شديد الكراهة.

وقال البهوتي في كشّاف القناع: فيُباح تقبيل اليد والرأس تديّنا وإكرامًا واحترامًا.

وكان الصحابة يقبلون أطراف رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك أيضا كان الصحابة مع بعضهم وكذلك فعل غيرهم معهم.. روى البخاري في الأدب المفرد عن عبد الرحمن بن رَزين قال: مررنا بالرّبذة، فقيل لنا: ها هنا سلمة بن الأكوع، قال: فأتيته، فسلمنا عليه، فأخرج يديه فقال: بايعت بهاتين نبي الله ﷺ، فأخرج كفّاً له ضخمة كأنها كف بعير، فقمنا إليها فقبّلناها. وقال الألباني رحمه الله: حسن الإسناد

وروى البيهقي في السنن الكبرى زياد بن فياض عن تميم بن سلمة قال: لما قدم عمر رضي الله عنه الشام استقبله أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه فقبّل يده، ثم خلوا يبكيان. قال : فكان تميم يقول: تقبيل اليد سنة.

وإذا كان المنكرون لتقبيل اليد من المتحررين والتنويريين والحداثيين والمتغربين يفزعون لهذه الفعلة وهذا السلوك، فهل يفزعون أو ينكرون بنفس الحرقة على المهووسين بأئمة الفسق والفجور.. إن راقصة الباليه العالمية الروسية تَمارا بلاتونوفنا كارسفينا والتي قيل في وصفها أنها صاحبة أجمل ابتسامة، وقيل أيضا هي إنسان آلي دقيق عندما تظهر على المسرح.. وهذه الراقصة اكتشفت يومًا أن حذاءها قد سرقوه وهي عادة مألوفة في أوروبا يسرقون حزاء الراقصة التي يعجبون بها، وأحيانًا يضعون فيه النبيذ ويشربونه، فسارت الراقصة في الشوارع حافية القدمين ودخلت أحد المطاعم اليونانية، وأقسم عليها صاحب المطعم أن يغسل قدميها في طشت مليء بالشمبانيا، وأن يقدم ذلك لمن يريد من الضيوف والزبائن فشرب منه ٩٠٪ من زبائنه ومريديه.!

ويال العجب إنه في تقدير المخلولين انبهار وتقديس للجمال والرشاقة والأناقة، أما أن يشرب ماء غسل ابن تيمية فهو نتانة وتخلف وتقديس وعبودية ورجعية.!

حينما تكون الشجاعة حماقة

الشجاعة والإقدام والمواجهة والفدائية كلها صفات جميلة وسامية وعظيمة، لكن لابد قبل هذا أن تصبحها أو تسبقها دلالات الحكمة وإشارات التريث والتعقل، وإدراك الموازنة بين الحق والباطل وإدراك حجم المكسب والخسارة، لأن الجرأة والشجاعة في بعض المواطن من الممكن أن تنقلب إلى غباء وسطحية وحماقة، لو لم يدرك صاحبها حجم المكسب والخسارة الذي يتعلق بغايته ورسالته وقضيته.

عبد الرحمن الكواكبي حينما نشر مقالاته على صفحات المؤيد تحت عنوان (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) قبل جمعها في كتاب وكان يوقع في نهايتها بحرف (ك) حتى لا يعرفه السلطان فيبطش به لصراحة مقالاته وجرأتها في النقد فهل كان في هذا جبانا أو خوافا بالتعبير الشعبي .. أم أنه كان حكيما يخفي شخصه حتى يؤدي قلمه رسالته؟

من حقك أن تكون بطلا وأن تكون شجاعًا وأن تكون صادعًا بالحق.. ولكن قبل ذلك كله من حق دعوتك أن تسير وتستمر وتجد من يحفظها ويقيم فكرها ويدعم رسالتها حتى تقوى وتكبر ويشتد عودها، وتصير عاتية كالجبل لا يقوى عليها من كان يملك محوها بالأمس، ولكم أقر الإسلام هذه الحكمة، وجاء في سير الصحابة هذا التعقل الذي يصب كله في مصلحة الإسلام بعيدًا عن التهور الذي لا يحمد عقباه، ولايجني خسارته سوى دعوته الناشئة في مهدها، فخالد بن الوليد انسحب بالجيش من معركة مؤتة حتى لا يتسبب في فنائه من تصادم غير عادل ومتكافئ، فهناك ٣٠٠٠ مسلم يواجهون ما يقرب من ٢٠٠,٠٠٠ من الرومان تكافؤ غير منصف ولا تقضي الحكمة باستمرار هذه المواجهة.. فلابد إذن من الانسحاب حتى يتم الإعداد والتجهيز بعدد أكبر واستعداد أكثر.. وهو من باب التكتيك العسكري بالتعبير العصري.. الذي يؤهل الجيش لمواجهة أخرى حاسمة، وليس من باب الهروب والخوف والجبن كما يتصور من ليسوا بحكماء.. وقد أقرهم القائد العظيم ﷺ ودافع عنهم ضد من اتهمهم بالخور والفرار، وقال هم الكرار إن شاء الله .. وفعلا كانوا هم الكرار..

وشاءت الأقدار أن يكون تمزيق أعتى دولتين في العالم على يد هذا القائد الذي انسحب بالأمس والذي قال فيه الصديق: "والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد"..

إنهم يقولون: تخفّوا في الجحور ويعدون ذلك عارا وشنارا.. ولكنهم أغبياء غير أذكياء، لأن هذه الجحور هي مراكز الإعداد والتأهيل لهبة أخرى لا تقيم لشامتيهم قائمة.. يظنونها النهاية ولكنها المثابرة والصبر والتربية، حتى تتغير الظروف وتتبدل الأحوال.

دعتني هذه الخواطر أن أصفها في ظل هذا الضياع الذي تشهده الدعوة نتيجة مغامرة تصادمية مع دولة ضخمة وجيش كبير، يخالفان رغبتها في قيام حكم ديني ديمقراطي يقوم على الحرية والمساواة.. الفكرة سامية والاستبسال فيها بطولة.. ولكن الهزيمة مؤكدة لا محالة.. فلابد بداية من حساب المعادلة، وقياس المكسب والخسارة وتقدير النجاح والسقوط.. أما التصادم بعيدًا عن هذه التقديرات، فهو من وجهة نظري انتحار وتعجل أحمق لجني الثمار قبل نضجها.. وهذه وجهة نظري التي ربما يخالفها الكثيرون.. ولكن يبقى سؤال أوجهه لمن يخالفني الرأي وهو: لو عُلم مسبقا حجم هذه الخسائر التي قد منيت بها الدعوة.. أكان ساعتها يقدم قادتها على مثل هذه الخطوات؟ أم يتراجعون ويتريثون لغرض أسمى، وهو الحفاظ على صفوف الدعوة وصلابة قواعدها؟

لقد أذن الله للمسلمين في القتال، وذلك بعد أن صارت لهم دولة وقوة وخيل وفرسان وسواعد تستطيع الدفاع عن الرسالة وصاحبها.. ثم لماذا كانت الدعوة سرية قبل أن تكون جهرية؟ وذلك حتى يتكون لها بنيان يستطيع أن يُبلغ أمرها ساعة الجهر.. ويصمد في وجه المخالفين المنكرين.

إن الامام (محمد عبده) كان صخرة عاتية في وجه الخديوي، وكان ثائرًا ضده ويتهمه بالخيانة والعمالة، ويؤكد على ضرورة خلعة واقصائه من العرش.. فلم ينله غير النفي والتشريد والحرمان الكبير من تأدية رسالته في التربية والتعليم، وبعد أن تأمل حجم خسارته في ذلك، رضي أن يعود ويكتب على نفسه تعهدًا بعدم التكلم في السياسة والتعرض للحاكم؟ فقبل ورجع الإمام حتى يؤدي دوره في التربية والتعليم، وتكوين أجيال عالمة واعية بدينها وقيمه.

وعبدالله بن حذافة السهمي حينما كان أسيرًا لدى الروم، وجرت المساومة بينه وبين قائدهم .. وتحمل صنوف الأذى والإرهاب، إلى أن أمر به ليرمى في الماء المغلي، وعرض عليه في النهاية أن يقبل رأسه نظير الإفراج عنه وعن ثمانين من المسلمين، فيقبل عبدالله وقبل رأسه، وعاد إلى المدينة مع المفرج عنهم، فلما رآه عمر بن الخطاب ﷺ احتضنه و قبل رأسه، وكان الصحابة يمازحونه فيقولون له : تقبل رأس علج يا عبد الله؟! فيجيبهم: ما ضرني ما فعلت و قد أطلق الله بتلك القبلة ثمانين أسيراً من المسلمين.!

إن عبدالله لم يكن جبانًا أعيته الشجاعة ولم يطق صبرًا على تحمل البلاء والثبات على مبادئه ، وإنما كان حكيمًا حينما أعاد ثمانين جنديًا لصفوف المسلمين مرة أخرى، تؤهلهم لمعركة جديدة يقتصون فيها من عدوهم.

انتصروا لشيوخكم

أتعجب كثيرا مما أرى وأشاهد وأسائل نفسي: أين العالم العلامة، والحبر البحر الفهامة فضيلة مولانا الشيخ علم الزمان ودرة المكان شيخ الإسلام (علي جمعة) كما يلقب نفسه، وأين فتاه الوفي (أسامة الازهري) من ينصبون أنفسهم سدنة التصوف ورموز الصوفية، أو دعاة مذاهبها، وقادة طرقها، وحماة أوليائها في هذا الزمان؟!

أين هم مما يحدث أمام أعيننا كل يوم من إهانة رمز كبير من رموز التصوف، وقطب من أقطاب الطريق.؟

القذائف الساخنة الملتهبة تنهال كل يوم على الشيخ الشعراوي من ألسنة الحاقدين والمارقين والنصارى والملحدين، وهم ينعتون الشيخ بأحط العبارات، ويتهمونه بأنه مخصب التطرف والإرهاب، وأنه منبع التخلف والأفكار المنحرفة! يحدث كل هذا ولا يتكلم مولانا على جمعة، ألا يستطيع السب والشتم، أعرف أنه في بعض المقاطع الصوتية، قد أوقعت به امرأة فسبها سبًا محرجًا قازعًا فاحشًا، انتقامًا لنفسه وغضبة لذاته، فلماذا لا يرمي هؤلاء السفلة بشيء من هذه الألفاظ علهم يرتدعون؟!

ولماذا لا يتعالم فتاه المغوار أسامة الازهري، ويغمز هؤلاء بشيء من عباراته الحادة المهينة، التي غمر بها الشيخ كشك يومًا ووصفه بأنه هياج صياح سطحي مبتذل.!

لعل الشيخ وصبيه يخافان ويخشيان إن دافعا عن الشيخ الشعراوي، أن ينالهما سهم من هؤلاء المنحطين، ويتناولونهما بالقذف والسب والشتم وتشويه الصورة.. فليذهب الشعراوي وألف شعراوي إلى الجحيم، بل يذهب التصوف والصوفية كلها إلى الجحيم، ولا يمس الشيخ علي جمعة وفتاه أي سوء.

رحم الله الشيخ الشعراوي ابن البلد الجدع صاحب المروءة والمنتصر للحق، والذي غضب غضبة مضرية يوم أن سب السادات الشيخ المحلاوي في خطابة الأخير وقال: (المحلاوي مرمي في السجن زي الكلب) فقال الشيخ الشعراوي يومها: الأزهر لا يخرج الكلاب.

أما الشيخ علي جمعة فلم نسمع له ولن نسمع، أنه رد عن عرض الشيخ ودافع عنه، ونهر ناقديه، لأنه أضعف من أن يقوم بدور الشهامة الدينية والمروءة التي تفرضها شيم الرجال.

ولعلنا هنا نلحظ شيئا مهما يستحق التسجيل، إن السباب والهجوم يتخطى هنا الشيخين محمد الغزالي ويوسف القرضاوي وغيرهما من شيوخ التيار الديني ورموزه، وانتقل إلى الشيخ الشعراوي الذي كان يمثل رمزا للتدين في تصور التيار الشعبي العام والمواطن المصري العادي، وذلك فطنة من الماكرين، لتوسيع دائرة الهجوم على الدين نفسه، وهز صورة رموزه في نفوس المواطنين العاديين.

الشعراوي إرهابي.. الشعراوي منحرف.. الشعراوي متطرف.. كلام فارغ وقلة أدب وهزل سخيف وفراغ عقلي وتطاول قميء، لشغل الناس عن قضايا النهوض بالوطن، ورصد العلل التي تحول دون تقدمه، وعلى رأسها مواجهة الفاسدين والمفسدين.

بعض الغيورين يعتقد أن انشغالنا بمثل هذه الردود يعتبر تحقيقًا لمأرب الماكرين الذين يريدن شغلنا عن قضايا رئيسية، وغايات عليا، ولكني أعتبر مثل هذه القضايا من باب تجديد الوعي وتعريف الناشئة والأجيال بقيمنا ورموزنا وتراثنا.. ليعرف الناس الشيخ الشعراوي، لتقرأ عنه وتسمع.. تلك

الأجيال الناشئة التي لم تعاصره، لتقبل على تراثه وتساجيله، وترى وتشاهد حزن الناس وغضبتهم من أجله، حتى يزداد حنقهم على الأغبياء المنحلين قيميا ودينيًا.

خذوها مني وبصدق.. وغدًا تنظركم الأيام: إنني أعتبر المجتمع الذي يحدث فيه مثل هذا الهراء، ويقع فيه مثل هذا الخلط، ويعلو فيه صوت هؤلاء الحمقى، وتردد فيه مثل هذه المهازل، نذير شؤم على مستقبله وحاضره.

فالله تعالى يغار على دينه وأوليائه.!

(من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة)

الغارة على الشعراوي

انتقد كما شئت فلك حريتك، ولن يحجر أحد على رأيك، لكن من المهم جدًا وأنت تنتقد أن يكون نقدك عن علم ودراية وفهم، لا أن يكون نابعًا وناطقًا عن جهل وانعدام بصيرة ووعي، وأن يكون نقدك هذا منبعه الهوى والمزاج فقط.

هنا تحديدًا لا يُحترم رأيك، لأنه ليس رأيًا وإنما سيتحول بالتجرد من العلم إلى هراء وتخبط وجهالة عمياء.!

الفتاة الجاهلة أو التافهة، التي تنتمي لمظلة الإعلام الأرعن، وصمت الشيخ الشعراوي بالمتطرف، والحق يقال ما سمعنا فيما سلف لنا من أعمار ونحن نتتلمذ على أحاديث الشيخ، إلا كل تسامح وعفو ومحبة وود وسلام.

بل المرء يعجب أشد العجب أن ينسب التطرف لشيخ كالشعراوي.! ماذا تعرف الفتاة عن الدين حتى تصف الشيخ بهذا الوصف المنكر؟ بل ماذا تعرف هي وأبوها عن التطرف نفسه حتى تنسبه إلى الشيخ؟

النابحون يعوون ليل نهار يدافعون عن الفتاة بأنها قالت رأيها ولها مطلق الحرية، وتصف معارضيها بأنهم طلعوا عليها سلخًا وتجريحًا، لقد وقفوا في خندقها ينافحون عنها، ورغم أنها أحرجتهم واعتذرت وحذفت كل ما بدر منها لا ندما على ما قالت ولكن خوفًا على شعبيتها أن تأكلها شعبية

الشيخ الكاسحة، إلا أن الحقدة المردة لم يعترفوا بهذا التواري، وأشعلوا أوار المعركة على الشيخ ومحبيه والمدافعين عنه.

ومهما فعلوا سيظل الشيخ الشعراوي ليس مجرد عالم دين طلع بأحاديثه على المصريين فقربهم لكتاب الله وقربه إليهم فقط، وإنما الشعراوي يتخطى ذلك حينما يصير اليوم معلما من معالم مصر تمامًا مثل الأهرامات الشامخات، وأبو الهول الذي تُعرف به مصر.

إن المعركة ليست على التطرف، ونحن لا نتجنى على الفتاة الطائشة ولا نلومها، فهي كما قال والدها: صغيرة مسفة جاهلة باللغة لا تعرف شيئا.. ولكن معركتنا اليوم على هؤلاء النشامى الأوباش الذين يزكون اللهيب حتى يشوشوا على صورة الشيخ في ذهن الأجيال، لقد كان هؤلاء قديما يحاربون التطرف وكنا معهم ننبذه ونتبرأ منه، لكن علمانيتهم وسفاهتهم تعدت مسألة التطرف لحرب الإسلام نفسه، لا حربه بالسيف والسكين والإقصاء فقط، وإنما بذل الجهد في طمسه وتشويه رموزه ودعاته العظام، الذين كان لهم في تثبيت معالمه جهد مذكور، نعم إنهم يسيئهم أن يأتي رجل كالشعراوي ليلقي عليهم أحاديث الإيمان، واستطاع أن يكون نبتة العشق في قلب كل مصري تجاه القرآن الكريم فجلى له كثيرًا من عظمة معانيه ومراميه المبهرة!.

وبينما يشتد الصراع والمغالبة يظهر هؤلاء الجهلة بحجة تصيب المرء بكثير من الشطط، أو كثير من العجب والضحك، حينما يقولون: إنه بشر.. ومعنى البشرية عندهم أنه والشر سواء، وكل بشر لابد أن يكون له حظ من الشيطان، وأنه معرض للنقد والقدح والرفض والذم، ولكن يبقى السؤال الذي لم يجيبوا عليه، ألا يوجد من البشر من لم يعرف معنى الطهر والاستقامة والايمان؟ أم لأنه بشر فلابد أن نلطخه بالطين والدنس؟!

للعلماء الربانيين في الإسلام مكانة كبيرة ومقام مرموق، وقد حثنا نبينا العظيم على احترامهم وتوقيرهم، يقول الله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }[1]

[1] - الحديد ١٨

و"النور الذي أشارت له الآية الكريمة هو المراد باللطف الإلهي، الذي يكون للأولياء والأتقياء، أو للصديقين من الرجال وهو من الحفظ والتأييد، لا من العصمة.

وقد كان من الصحابة الكرام من خصه الله بذلك الفضل الإلهي أمثال أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام بأن الله قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه، وقال لعمر: " والذي نفسي بيده ما رآك الشيطان سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك يا عمر"

إن البعض حينما تعلموا.. أن من خصائص الإنسان أنه يخطئ ويتوب لم يتعلموا للأسف أن هناك قطاعا ضئيلا يشملهم الله تعالى بلطفه ومعيته، فيرعاهم ويحفظهم من كل سوء.

قد يخطئ الشيخ في بعض الاجتهادات، وهذا وارد، لكن خطأه في الاجتهاد يرد عليه باجتهاد مثله، أما أن يقوم ثلة من الجهال فينصبون المشانق للشيخ ويستخدمون معه أساليب البلطجة الاعلامية والإرهاب الفكري، ويستغلون المساحة التي أتاحتها لهم الدولة دون غيرهم، فهو أمر غير مقبول، ولن يرضي المصريين الذين أسرتهم أحاديث الشيخ وتمكنت إلى اليوم من قلوبهم.

وقد عجبت من جاهل أحمق عير الشعراوي بأنه سجد لله شكرا حينما هزمت مصر في نكسة ٦٧، وأراد أن يستخدم مع الشيخ نفس المنطق القذر الذي استخدموه مع تصريح طظ في مصر دون أن يعرفوا حقيقته ومغزاه، والحق أنني لو كنت مكان الشعراوي وقتها، لما اكتفيت بسجود الشكر فقط، وإنما أقمت مع ذلك الافراح والليالي الملاح، لا شماته أو بغضًا في مصر ، فكيف نشمت فيها وهي الوطن العزيز؟! ولكن فرحا لأنها نجت من الشيوعية التي كانت كفيلة أن تمحوا جذور الدين من أرض مصر.

وأمام أزمة الشيخ الشعراوي، مازلت أكرر وأندد وأسجل غضبي من غيبة الأزهر وترديه وخنوعه وتراجعه أمام ما يحدث كل يوم من إهانة رموزه الكبيرة.. حتى متى وإلى أين يظل صوته خافتًا خائفًا خانعًا؟! حتى متى يظل لسانه معقودًا ملجمًا ليرد على هؤلاء الكائدين؟

الحويني لم ينسلخ من جلده

يصدق بعض الناس مايشاع من أن الإمام الشافعي، كان له مذهبان القديم والجديد، وأن السبب في ذلك، أنه عندما جاء إلى مصر وجد أهلها على طبيعة تخالف طبيعة أهل العراق فغير فتاويه.. والحق أنني حينما راجعت تاريخ الشافعي وترجمته، وجدت أن ذلك لم يحدث، وأن الشافعي لم يغير فتواه لاختلاف طبيعة أهل مصر عن غيرهم، وإنما لأنه تبين له من الأدلة مالم يكن يعلمه، فغير فتاويه فصار هناك قديم وجديد..

وهذه الحالة لا تخص الشافعي وحده، وإنما هي ديدن كثير من الأئمة، وأمر وارد في حق كثير من العلماء.. فحينما يعتذر العالم عن اجتهاد أو رأي، ويؤكد أنه أخطأ فيه من قبل، فإن هذا لا يعني أنه اعتذر عن منهجه ودعوته وعقيدته وملته، كما يتصور بعض الأدعياء المغرضين الذين قابلوا اعتذار الشيخ الحويني، بهذه الهوجة من الزيطة والتشويش والبهتان والإفك وانتهاز الحادثة للادعاء ببطلان دعوة الشيخ وبراءه من تاريخه العريض في الدعوة.. هكذا يصورون للناس أن الرجل أعلن انسلاخه من جلده، وحملوه مالا طاقة له به، وما لم يحم حول مراده أبدًا، وما الأمر الا أنه اعتذر عن بعض الآراء والاجتهادات العلمية، التي تبين له مع الزمان صواب غيرها.. أو كما صرح هو طريقته في الرد على بعض الأئمة الكبار، وهذا الخطأ ليس جريمة في دين الله كما يتصور الجهلاء، وإنما هو أمر وارد وعارض، ولدينا الحديث الشريف: من اجتهد فأخطأ فله أجر، ومن اجتهد فأصاب فله أجران.

وإذا لم يتداركه العالم من نفسه، نبهه إلى هذا عالم غيره، ودله على مناط الصواب من الخطأ.

وهؤلاء القوم جهلاء بدنيا الفقه والفقهاء والعلم والعلماء، فالتراجع عن الآراء وراد في طبيعتهم وصنعتهم، التى تؤكد أن العلم لا كبير له.

هل أجرم الرجل حينما يحذر من التسرع في التصنيف والتأليف قبل أن يشد الإنسان عوده في العلم؟!

أقرأ كثيرًا لكبار الفلاسفة والمفكرين فأرى أحدهم يقول: لو قدر لي أن أعيد تأليف كتابي الفلاني الذي اشتهر وعرف، لألفته بطريقة أخرى وشكل أكثر حذقًا وإتقانًا، وهكذا طبيعة الزمان أو طبيعة الانسان يتطور وينضج مع الوقت وتتراءى له كثير من الآراء لم يكن قد وقف عليها من قبل.!

بل تقرأ في كثير من كتب العلماء فترى على غلاف الكتاب جملة مكتوبة في أسفله تقول: طبعة محققة ومنقحة ومزيدة، أي نقحها العالم وزاد عليها وأضاف ما تراءى له بعد أن ألف طبعته السابقة.

فلماذا هذا الإفتراء والبهتان؟!

نحن للأسف أمام أبواق إعلامية غير شريفة ولا نزية، نصبت أوار العداوة مع التيارات الدينية ورموزها العلمية، وخاضت حربًا لا تعترف بالشرف ولا المروءة والإنصاف، وتتصيد كل ساقطة ولاقطة، لتبني عليها قبة، وتجعل منها حبة، لأنها تؤمن أن التشويش، مجرد التشويش، أسلوب رخيص دنيء يؤتى أكله في أمة لا تقرأ ولا تسمع، وإذا سمعت أو قرأت لا تفهم كما وصفها بذلك عدوها.!

قال تعالى: (وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ)

هل تتخيل أنني أضحك كثيرًا مما سمعت ويتناقل إلي من الذين يهيجون الدنيا على الحويني، فالقوم حينما سمعوا كلمة اعتذار، ظنوا أن الرجل أخطأ، ومعنى أنه أخطأ أي ارتكب جرما، ومعنى انه ارتكب جرمًا، فإنه يجب عقابه وتجريسه وعدم الإرفاق به ورحمته والتهاون فيما أخطأ فيه.. ويح البقر.. بدلا من أن يتبينوا أين يضعون أقدامهم إذا بهم يدهسون أبناءهم، وهؤلاء البله لابد أن تقام لهم محكمة تصدر عليهم حكمها بالعبط والسفه والبله.. إننا نسمع عن السوقة والدهماء والغوغاء والعامة الضالون الهوجائيون، لكننا أبدًا لم نكن نظن وجودهم في دنيا الاعلام والفضائيات، بل في دنيا العلم والدعاة.. لقد كنا نستمتع حينما نجد من يعادينا بعلم ومنطق وشبهات نستطيع اذابتها، لكن الذي لا يطاق ويزعج حقًا، حينما يطلق الإعلام علينا سوقته الذين لا يفهمون ولا يعون، فيلبسون على الناس الحق، ويزيفون الصدق.

أحب أن أبشر هؤلاء المشنعين المهيجين أنهم يعملون على زوال دينهم وذمتهم.. انظر لما قاله الإمام الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء: (من يتتبّع رُخَص المذاهِب، و زلاّت المجتهدين فقد رقَّ دِينه)

وحكى الزركشي أن القاضي المالكي إسماعيل بن إسحاق الأزدي رحمه الله، قال: (دخلت على المعتضد، فَدَفَع إليَّ كتاباً نظرت فيه، وقد جمع فيه الرخص من زلل العلماء، و ما احتج به كل منهم، فقلت: إن مصنف هذا زنديق. فقال: ألم تصح هذه الأحاديث؟ قلت: الأحاديث على ما رُوِيَت، ولكن من أباح المسكر لم يبح المتعة، ومن أباح المتعة لم يبح المسكر، و ما من عالم إلا و له زلّة، و من جمع زلل العلماء، ثم أخذ بها ذهب دينه، فأمَر المعتضد بإحراق ذلك الكتاب).

ولكن متتبعو الزلات يتتبعونها عن علم، أما المشنعون فإنهم لا تهمهم زلة بقدر ما يهمهم أن يقال زل، فيهيمون على أهوائهم ضالين مضلين، نعم أخطأ الحويني، ولكن ماذا أخطأ؟ وفي أي شيء أخطأ؟! لا يهم فالمهم أنه أخطأ، وورد على مادة الخطأ.!

الدعوة التي هدمت دولة!

وهكذا دعوة الأولياء والعلماء الربانيين، أشد خطرًا من الجنود والحشود.

دعوة يخطئ الطغاة إن كفروا بها واستهتروا بأثرها.

وتخطيء الدول لو أهانت أصحابها واستقلت بأكفهم، حينما يوجهونها للسماء، تلك الأكف التي تستدعي من الله ما هو أشد وأعنف من القنابل والصواريخ التي تفني الأمم وتبيد العروش.

إنها دعوة لا يردها الله، ويزلزل بها الأمم والامبراطوريات، لأن الله لا يرد طلب أوليائه، وأحب الناس إليه.

كان الحجاج يتألب في فراش الموت تعيسًا وهو يقول: مالي ولسعيد بن جبير. مالي ولسعيد بن جبير؟ فقد دعا عليه سعيد وقال: اللهم لا تمكنه من أحد بعدي.. وقد كان.. فما لبث الحجاج اللعين أن أصابته دعوة سعيد ولي الله الكريم.

جد (علي بن يوسف بن تاشفين) في جمع كتاب (إحياء علوم الدين) لأبي حامد الغزالي من جموع المسلمين في المغرب، وشدد على ذلك وأخذ يفتش عنه في كل مكان من بيوت الناس في سائر البلدان من مملكته، وأغلظ على العامة والخاصة بالإيمان، حتى جمع من الإحياء نسخًا كثيرة من بلاد الأندلس

والمغرب الأقصى، ووضع ما جمع من الأندلسيين في صحن جامع قرطبة، وما جمع من بلاد مراكش في صحن مسجدها الجامع، وهكذا في سائر الاقطار المغربية وأشعل فيه النيران هناك وهناك.

بلغ ذلك الإمام أبو حامد الغزالي وهو في بغداد، فحزن حزنًا شديدًا أدمى قلبه، لمعزة الإحياء في نفسه، فدعى على التاشفيين أن يمزق الله ملكهم كما مزقوا كتابه.

روى ابن القطان في كتابه (نظام الجمان فيما سلف من أخبار الزمان) عن عبد الله بن عبد الرحمن شيخ مسن من سكان فاس، قال: كنت ببغداد بمدرسة أبي حامد الغزالي، فجاء رجل كث اللحية على رأسه كرزي صوف، فدخل المدرسة وحياها بالركعتين، ثم أقبل على الشيخ أبي حامد فسلم عليه، فقال فمن الرجل؟ قال من أهل المغرب الأقصى، قال: دخلت قرطبة؟ قال نعم! قال فما حال فقهائها؟ قال: بخير، قال: هل بلغهم الإحياء؟ قال: نعم!

قال فما قالوا فيه؟ فلزم الرجل الصمت حياء منه، فعزم عليه ليقولن ما طرأ، فأخبره بإحراقه وبالقصة كما جرت، قال فتغير وجه الشيخ أبي حامد، ومد يده إلى الدعاء والطلبة يؤمنون، فقال: اللهم مزق ملكهم كما مزقوه، وأذهب دولتهم كما حرقوه!

فقام (محمد بن تومرت السوسي) الملقب بعد بالمهدي عند قيامه على المرابطين فقال له: أيها الإمام ادع الله أن يجعل ذلك على يدي!

فتغافل عنه أبو حامد، فأخبره بمثل الخبر المتقدم، فتغير ودعا بمثل دعائه الأول، فقال له المهدي: على يدي، فقال: اخرج يا شيطان سيجعل الله ذلك على يدك! فقبل الله دعاءه. وخرج (محمد بن تومرت) من هناك إلى المغرب برسم تحريك الفتن وقد علم أن دعوة ذلك الشيخ لا ترد، فكان من أمره ما كان، وكان تاريخ هذا الإحراق سنة سبع وخمسمائة"

بعض الباحثين المتصوفة يقرر صحة هذه الدعوة، ويجعل منها سببا أكيدا في ضياع دولة المرابطين، لأن المتصوفة جبلوا على عبادة الأشخاص، وتقديس الشيوخ، ولو نظرنا بتأمل قوي أمام هذه الدعوة، لوجدناها دعوة، بهلاك دولة أقامت دين الله في الأرض، ونصرت رايته، وأعلت لواءه، وتحدت ممالك الصليب، وكسرت قوتهم، ومحت جموعهم، وأذلت جيوشهم، حينما تجمعت لتستعيد

الأندلس، ولولا عبور المرابطين، لضاعت الأندلس منذ ذلك التاريخ، لكن جهادهم مد فتحها وأطال الإسلام فيها مئات السنين، كما كان لأبي حامد علاقات قوية بالقائد البطل يوسف بن تاشفين، والد علي حينما أرسل له فتواه بجواز العدوان بل وجوبه على ملك الطوائف في الأندلس حتى ينقذها من الضياع، وينشر العدل بين أهلها، ويحافظ على كيان الإسلام هناك.. فكانت فتواه عظيمة التحفيز لهذا الجهاد المبارك.

وأمام صدقها من عدمها لا يمكن أمام دعوة الأولياء، إلا أن نجزم بنفوذها.

فليجذر الناس أولياء الله، وليحذروا دعوتهم التي لا يردها رب العالمين.

أين الأزهر وشيخه؟!

من الممكن أن تتهكم على عالم لأنك تختلف معه ولا يعجبك ما يقول، ومن الممكن أن تسخر من رأي فقهي فلعلك لا ترى صحته ونضجه، ومن الممكن أن تستخف بتأويلٍ ما.. لأنك ترى غيره أصح وأفضل منه.. من الممكن أن يحدث كل شيء من هذا، ومن الممكن أن نبرره ما دام يأتي في إطار الممكن وحيز الجائز.. أما أن يبلغ بك الشطط والتطاول والانحطاط والإنحدار.. فتسخر من القرآن ونصوصه، وتحكم بخطئه وتعترض عليه.. فهذه جرأة وقحة وتردٍ غير معهود، وسوء أدب مع الله العظيم.!

هذا تمامًا ما حدث مؤخرًا من الإعلامي الشهير (تامر أمين) الذي استضاف في برنامجه على فضائية الحياة مؤخرًا، نائبًا مسيحيًا سابقًا عرض فيه صورًا لمنهج التعليم بالصف السادس الابتدائي، مؤكداً أنه يتضمن العبارات التالية (المغضوب عليهم هم اليهود، والضالون هم النصارى، الإسلام هو دين الحق وكل دين غير الإسلام باطل) ثم جاء التعليق المباغت للإعلامي المتحذلق بقوله: أنت متأكد أن ده كتاب الدين تباع الوزارة؟

ثم قال صارخًا: إحنا كده بنطلع مشروع إرهابي، إحنا كده بنربي إرهابي، وهذه كارثة.. مفيش إنسان عاقل يسمح بأن يدرس هذا الهزي للأطفال.!

وهكذا تصير الفاتحة التي ظلت ١٤٣٨ عامًا مثالاً للهداية والقوامة والمثالية في توحيد الخالق وشكره والإقرار بنعمه على عباده، والسخط على الجاحدين منهم.. تأتي اليوم ليكتشف هذا صاحبنا أنها توّلد الإرهاب، ولا تتناسب مع مجتمع آمن يقر المواطنة ويؤمن بالتعدد.. وحق لهذا وأمثاله أن يفعلوا ما يحلوا لهم في أمة فقدت الغيرة على دينها وقيمها وشعائر ربها، التي ينال منها اليوم كل ناعق سفيه.. ولا أحد يتحرك ، ولا غاضب يستنكر، ولا دولة تعترض، ولا نظام ينهى ويعاقب.. وربما تقوم الدنيا ولا تقعد لو تحفظ أحدهم على كلام وزير أو رئيس.. أما كلام الله فصار مطية للملحدين والفاسقين والمستخفين، ينالون منه حينما غاب عنه حراسه، وأهدر مقام حماته والمنافحين عن جنابه. لقد سمح الإعلامي لنفسه أن ينطق بهذه الجُرم، ويُعلن هذه الفرية ويهين كلام الخالق سبحانه، ويبرهن عن جهله الفاضح بمعاني الوحدانية التي ترفضها أهواء العلمانية، التي تدعو للانسلاخ من الدين والتبرؤ من قيمه وتعاليمه.. هذه التعاليم العظيمة التي لم يسبقها سابق في سماحتها وسموها حينما قدمت للعالم أعظم وأرقى حدود وصور العدل والمساواة والمعنى الحقيقي لكرامة الانسان.. هذا الدين الذي احترم المخالف، وحفظ له عقيدته وضمن له الحرية في شعائره وعبادته.. في الوقت الذي كان أبناء الدين الواحد يختلفون ويتفرقون فيذبح بعضهم بعضًا، كما حدث في المسيحية بين الملكانيين واليعاقبة في مصر قبيل أن يأتيهم عمرو بن العاص الذي حفظ بالإسلام دماء الناس، وصان الإنسان وقضى على الإرهاب محى الإضطهاد.!

وإني لأتعجب.. لماذا لا يسأل هذا المتهجم الجهول نفسه قبل أن يقدم في فروسية الأنذال ليطوي كتابه، ويحذف آيات ربه، ويلغي أحكام خالقه من أجل عيون النصارى.. لماذا لم يكلف خاطره ويسأل نفسه: ما هو حكم النصارى فيه كمسلم وما نظرتهم له كمصري على غير عقيدتهم ؟، هل هو مؤمن مهتدي أم كافر ضال؟!وهل حكمهم عليه يولد الإرهاب أم يجلب الأمن والسلام.؟!

إن الناظر للواقع والأحداث يدرك بوضوح أن هناك حملة مدبرة للطعن في ثوابت الدين وتكذيب آياته والاعتراض على ثوابته وتهديم وتشويه رموزه وعلمائه يقودها جهلة منحرفون في أفكارهم ومفاهيمهم من الاعلاميين العلمانيين المتطرفين.. فمنذ أيام طلع علينا الإعلامي الشائخ البائخ (مفيد

فوزي) بتصريح مشابه عن الشيخ الشعراوي الذي له مكانة كبيرة في نفوس المسلمين عامة، والمصريين خاصة، وقال: بأن الشعراوي (مهد الطريق أمام الفكر المتطرف لكي يظهر ويتفشى في المجتمع المصري).!

ولعل الموقف هنا لا يستدعي التحليل أو البحث عن السبب الحقيقي الذي دفع لرجل لهذا الإفك المفترى.. بقدر ما تدفعنا حيرتنا للتساؤل:

أين دعاة الأزهر وشيخه مما يحدث؟! وإذا لم يتحرك الأزهر ومشيخته حينما يُهان القرآن الذي هو كتاب الله، ويتهم بأنه يشرع للإرهاب ويؤصل للتطرف، فمتى إذن يتحركون؟! أم أنهم من الذين يؤمنون بأنها حرية الرأي والفكر، حتى ولو دُهست المقدسات وأهينت الحرمات؟!

بل العجب كل العب.. وأنت تسأل نفسك فتقول لها: أين أشاوس السلفية الذين صدعوا رؤوسنا بتكفير حالق اللحية ومقصر الثوب؟! أين هم اليوم ممن يُهين القرآن العظيم ويتهجم على آيات الله الخالدة المقدسة.. أم أن النكير يتغير بتغير الواقع؟! أين من يلقبونهم هراءً بأنه أعلم أهل الأرض؟ أين (يعقوب) الذي يصلصل ويجلجل؟ وأين (حسان) الذي إذا تكلم أوجع؟ أين هؤلاء الفحول جميعًا الذين يعلو صوتهم في غير معركة وينتفضون في غير نزال، فإذا ما حانت لحظة الجد لا تسمع لهم همسًا، لماذا تموت الغيرة في هذه المواقف، بينما يتقد لهيبها فيما يسهل أمره ويلين نقده؟!

فهل يخرج علينا شيخ الأزهر يومًا، ليقوم مقام الشيخ شاكر في الدفاع عن ثوابت الدين وكتاب الله أمام المنحرفين، أم أن هذا أمر مستحيل.؟! ولماذا أتساءل وأنا أدرك بقوة أنها منية مستحيلة لا يمكن أن تتحقق! وأنني من الممكن أن أتخيل أبو الهول الذي يتكون فمه من الحجارة الصماء ينطق ويصرخ، بينما لا يمكن أن أتخيل شيخ الأزهر يصرخ في وجه ملحد، أو ينتصر لدينه من الكائدين له والحاقدين عليه، أو ينافح عن علماءه ورموزه الذين يمثلون صورته الزاهية المشرقة.!

نصيحة الحاكم كيف تكون؟

تصلح الأمم بصلاح الحكام وتفسد بفسادهم، وكم من حاكم تولى أمر أمة لا تملك عناصر النهوض ومقوماته، فقادها بحكمته وتدبيره، حتى عَلَا شأنها وتجاوزت عقباتها، وكم من أمم غنية عفية،

سقطت وانحدرت، حينما تولى أمرها فاسدون مستبدون، وحمقى مغفلون.. ونلمح في حديث رسولنا ﷺ عن السبعة المستظلين بظل الله سبحانه يوم لا ظل إلا ظله، تقديمه للإمام العادل، على بقية الستة المذكورين، وفي ذلك إشارة ذكرها بعض الشراح، فقال: "ذكره ابتداءً لأن بصلاحه يصلح هؤلاء، وبفساده يفسد هؤلاء"[1]

وإذا كان العلماء مُمثلون لأعظم حركة إصلاحية إلهية عرفها العالم، فإنه يجب أن لا يغيب عن وعيهم أهمية السلطة ودورها في دعم الإصلاح وترسيخ مبادئه.. وهذا الوعي يلزمهم بالسعي إلى بابها ليقدموا النصح والتوجيه، ولا يكونوا بعيدين عن المشهد جملة بدعوى الخوف من الفتنة وإغراءات الحكام.. لابد أن يوقنوا أن القضية أكبر وأجل مما يحذرونه من الفتنة والإغراء، وهي الهواجس التي تتضاءل أمام المهمة العظيمة التي يتحملون مسؤوليتها، وتُلقى على عاتقهم.. وقد وضع لنا القرآن الكريم المنهج الذي يخاطب به الحكام على اختلاف مستوياتهم.. قال تعالى: (اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)[2]

ففرعون ذلك الطاغية الجبار الذي اقترف الآثام والجرائم، وبالغ في القهر والجبروت وادعى الألوهية، وعبّد بني إسرائيل وأذلهم وذبح أطفالهم.. أوحى الله تعالى لنبييه أن يخاطباه برفق ولين رغم فجوره وغروره.. وليس ذلك لأنهم حكام وملوك وأصحاب سلطان وجاه، وإنما لأنهم في المقام الأول يتحكمون في مصالح العباد ومصائر البلاد، فإذا خاطبتهم برفق ولين ملكت قلوبهم، وأسرت وجدانهم، واستملت جانبهم، ونلت الحظوة لديهم، فأحبوك وقربوك، فتباشرهم بعد ذلك بآرائك وأفكارك ونصائحك، مرشدًا وموجهًا، فالحاكم الذي تجتمع حوله أصوات الباطل، ولا يرى إلا صوتًا واحدًا للحق، أفضل حالاً من الحاكم الذي تخنقه الظلمة، ولا يرى بصيصًا واحدًا من نور، وربما تختلف هذه النظرة مع كلمات ومواقف في حياة كثير من العلماء والوجهاء من سلفنا الصالح، فإن سيد التابعين (سعيد بن المسيب) يقول: (إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحذروا منه فإنه لص)

[1] - فتح المبدي شرح مختصر الزبيدي بتصرف
[2] - طه :٤٣-٤٤
[3] - مختصر منهاج القاصدين- لابن قدامة المقدسي

ويقول أبو حنيفة رحمه الله: (كن من السلطان كما أنت من النار، تنتفع بها ولا تقترب منها فإنها تحرقك) ولعل هذا السلوك له ظروفه وتقديراته التي يعلمها أصحابها، ولكنه لا يستقيم في كل الأحوال، ولا يُقبل مع كل الحكام، وقد يكون في بعض الظروف ضد مصلحة الأمة.. فالناس يحتاجون إلى السلطان، كما يحتاجون للعلماء، ويسعدون في حياتهم وتستقر أمورهم، حينما تلتقي قوة السلطان وعدله، بحكمة العلماء وعدلهم.. وهناك من الآثار التي تعرض لنا هذا التعاون المشرق بين الطرفين، فالحاكم يستنير بالعلماء، ويستشير بأهل الرأي والحكمة، ومن قبل ذلك.. ما جاء في القرآن الكريم حيث قال تعالى:

(قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ)[1]

وفي الأثر: "صنفان من الأمة إذا صلحا صلحت الأمة، وإذا فسدا فسدت الأمة: السلطان، والعلماء"[2]

وقال رسول الله ﷺ: "إذا أراد الله بالأمير خيراً، جعل له وزير صدق، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد به غير ذلك، جعل له وزير سوء، إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يُعنه"[3]

ولقد كان علماء المسلمين يقدمون النصح للحكام، ويظهرون لهم الرأي، انطلاقًا من قوله ﷺ:" الدين النصيحة " قلنا لمن ؟ قال : " لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المؤمنين وعامتهم"[4]

فمن الدين.. النصيحة لولاة الأمر، ولا يتأتى ذلك.. إلا بغشيانهم والدخول عليهم والحديث إليهم، أي إنهم يقبلون النصح ويقدرون العلماء، ويستجيبون لما يراد منهم.

قال ابن عبد البر: "وأما مناصحة ولاة الأمر فلم يختلف العلماء في وجوبها إذا كان السلطان يسمعها ويقبلها)[5]

---

[1] -النمل: ٤٠

[2] - حلية الأولياء وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر

[3] - سنن أبو داوود

[4] - رواه مسلم.

[5] - الاستذكار ٨/٥٧٦.

وقال النووي: (أما النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين)

إن الإسلام لم يجعل الحكم عملاً آثماً، ولم يصف رجاله بما وصف به أصحاب المنكر والضلالة.. وإنما جعل السلطان العادل من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، وكان أكرم المسلمين من صحابة النبي ﷺ من تقلدوا زمام الأمور وحكموا الرعية وتقلدوا سيادة الأمة قبل أن يتحول الحكم فيها إلى ملك عضوض.

وقد رأى جُلة من السلف إبداء النصح للحكام بدلًا من الثورة عليهم والخروج عن طاعتهم، حين لم يروا كفرًا بواحًا أو إلحادًا في آيات الله تعالى، أو تغييرًا لأحكام الشرع، أو حرباً للدين وقيمه وتعاليمه، وهم وإن كانت تصدر منهم بعض الهنات، فإنها تُسدد بالنصيحة والموعظة الحسنة.!

جعلوني حنفيًا

كنا قديمًا حينما التحقنا بالدراسة في المعاهد الازهرية، كان أول شيء صبغونا به وفصلونا عليه، هو التخصص المذهبي، فنسبوا كل طالب لمذهب من المذاهب الفقهية الإسلامية المعتمدة، ولم يكن الأمر باختيارنا، وإنما كان باختيار إدارة المعهد، التي تنسق الامر حسبما ترى بالتساوي، وكنا ساعتها نشعر أن أقدارنا بيد غيرنا، وأن هناك من يتحكم في عقولنا ومصائرنا، ولم يتركوا لنا الأمر بالخيار الحر، والإرادة المباشرة، وكنت أتمنى أن أكون حنفيًا كأختى التي تسبقني بعامين، ولكن غلب علي اختيار المعهد، فأوردوني شافعيًا، ولما علم والدي، جاء إلى المعهد وغير مذهبي من الشافعية إلى الحنفية، حتى تستطيع أختي أن تتابعني وتذاكر لي.

لم يكن هناك ذكر وأثر لدراسة المذهب الحنبلي، أو الظاهري، وكنا كطلاب يفاخر بعضنا بعضًا بانتسابه لمذهبه، ويأخذنا التعصب لأئمتنا وكتبنا التي ندرسها، وكنا ندافع عن المذهب وكأنه العقيدة التي يجب أن نفديها بالروح والدماء.

[1] - شرح النووي على صحيح مسلم.

وأذكر أنني كنت أنتصر على أترابي المتعصبين لمذاهبهم، بأن الزواج لا يتم إلا على مذهب أبي حنيفة، حيث يقول المأذون الذي زوج آباءهم: وعلى مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، فكانت حجة مبهتة، ولكمة مخرسة، خاصة ما ورد في وصف أبي حنيفة بالإمام بالأعظم.

والمتتبع لتاريخ المذاهب الإسلامية من حيث انتشارها وجغرافيا تواجدها، يجد للسياسة والسلطة دور كبير في هذا التواجد والاتساع، فالمشرق الإسلامي وخاصة في العصر العباسي، غلب عليه فقه أبي حنيفة، وصار مذهبه هو مذهب الدولة العباسية، وما كان ذلك إلا لأن أبا يوسف تلميذ أبي حنيفة، تقلد منصب قاضي القضاة في عهد الرشيد، فصار يعين أتباع مذهب إمامه وتلاميذه ومن يوافقونه في الفقه والرأي، حتى ساد المذهب وعمت أحكامه في شتى بقاع الخلافة.

وكذلك يرجع للسلطة فضل انتشار مذهب مالك في بلاد المغرب والأندلس، وذلك حينما كان الإمام مالك يمدح سياسة (هشام بن عبد الرحمن الداخل) ويثني عليه، ومن أجل هذا رحب هشام باتجاهات مالك في الفقه، وشجع على الأخذ بها واتباعها، كما جاء تشجيعه لتلاميذ الامام مالك الذين أخذوا عنه بالمدينة، وفي مقدمتهم زياد بن عبد الرحمن ويحيى بن يحيى الليثي، على نشر مذهب شيخهم في مختلف النواحي، وانتهز يحيى هذه الفرصة فوسع نفوذه، مستغلا تقوى الأمير وميله للخير، فصدرت كل الفتاوى على مذهب مالك، ثم أخذ يعين تلاميذه في المناصب القضائية المختلفة، وأحيانا في المناصب السياسية، حتى زاد نفوذ الفقهاء المالكية.

وفي حياة الدولة العلية العثمانية، كان الأخذ بالمذهب الحنفي ضرورة ساهمت فيها عدة عوامل، فهو الميراث المأخوذ من الدولة العباسية، كما أنه المذهب الذي كانت تسير عليه كثير من الممالك التي كانت تسبقها كالسلجوقية والغزنوية، وبسبب طول فترة حكم الدولة العثمانية، أصبح أكبر مذهب إسلامي له أنصار وأتباع، فانتشر في العديد من دول المشرق الإسلامي في العراق وبلاد ما وراء النهر، لكن الكثيرين يرجعون استحسان الدولة العثمانية للمذهب الحنفي، بسبب فتواه التي أجاز فيها الخلافة لغير قريش، فتبنوه وساروا باسمه، وحملوا الناس على الأخذ به، وصار مذهب الدولة

الرسمي، وقد عد الفقيه علي بن سلطان القاري أتباع مذهب أبي حنيفة في القرن الحادي عشر بثلثي المسلمين في العالم.

قال ابن حزم رحمه الله: اثنان من مذاهب أهل الإسلام انتشرا بالسلطان، مذهب أبو حنيفة في العراق، ومذهب مالك في المغرب.!

وإذا نظرنا للمذهب الحنبلي، فما كان له أن يذكر، لولا تبنته الدولة السعودية، وجعلته مذهبها الرسمي في قضائها وأحكامها، وبدأ الطلاب الذين يفدون إليها للدراسة، يتعرفون عليه ويتبنونه وينشرونه في بلدانهم، ويسيرون بمسائله وفتاوية، ولولا هذا لاندثر المذهب وصار تراثًا في الكتب.

وتظهر لنا أهمية السلطان والقوة والحكومة، في فرض الأفكار والمذاهب والمعتقدات، وصدق أمير المؤمنين عثمان ﷺ: (إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) ومعناه:

يمنع بالسلطان من اقتراف المحارم أكثر مما يمنع بالقرآن؛ لأن بعض الناس ضعيف الإيمان، لا تؤثر فيه زواجر القرآن ومناهيه، فيقدم على المحارم ولا يبالي، لكنه حينما يعلم عقوبة السلطان، يرتدع ويخاف العقوبة السلطانية.

المرابطون بالنصيحة

إننا نريد أن يرابط العلماء بين يدي الحكام ناصحين مرشدين يبلغون رسالتهم ويقومون بدورهم في نصرة الحق وإظهار أمره.. أما الهروب والفرار فإنه يضر بالأمة جميعًا ولن يفيد أصحابه في شيء، وربما يختلف الزمان عن الزمان، وتختلف الظروف عما سبق من حال الأئمة المذكورين، وفي تاريخنا الإسلامي.. دعوات صريحة إلى ضرورة التعاون بين العلماء والأمراء عملاً بهدي القرآن الكريم: (وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله...) ذلك بأن الاستفراد بالحكم يعني كما قال أحد الفاقهين:

"محاولة للتحليق بجناح واحد، والمشي بقدم واحدة!، ومن جهة أخرى فهو نوع من قهر الآخر.. الذي يراد له أن يكون مستقبلًا لأفكارنا.. مجرد وعاء يتلقى مستسلمًا آراءنا، ولن تكون هناك فائدة من وراء هذا الاستفراد بالرأي"

قال رسول اللهﷺ: (من أراد أن ينصح لذي سلطان في أمر فلا يبده علانية، وليأخذ بيده، فإن قبل منه فذاك، وإلا كان قد أدى الذي عليه)[1]

و عن أسامة بن زيد ﷺ :(قيل له ألا تدخل على عثمان فتكلمه؟ فقال: أترون أني لا أكلمه إلا أسمعكم؟! والله لقد كلمته فيما بيني وبينه ما دون أن أفتتح أمرًا لا أحب أن أكون أول من فتحه)[2]

قال الألباني: (يعني المجاهرة بالإنكار على الأمراء في الملأ، لأن في الإنكار جهارًا ما يخشى عاقبته، كما اتفق في الإنكار على عثمان جهارًا إذ نشأ عنه قتله)[3]

وعن سعيد بن جبيرﷺ قال:(قال رجل لابن عباس ﷺ: آمر أميري بالمعروف؟ قال: إن خفت أن يقتلك، فلا تؤنب الإمام، فإن كنت لا بد فاعلاً فيما بينك وبينه)[4]

وللتوفيق بين ما كان من السلف الصالح من مواقف متباينة نقول: إن للعالم بصره وتأمله الذي يقيس به الأمور، ويقيّم به الرجال، ويُحدد به المواقف.. فهناك حكام مسلمون لا يطيقون كلمة الإسلام، ويريدون لبلادهم المسلمة أن تحاكي أوروبا في ملبسها ومأكلها ومشربها ومسلكها، حتى في شمسها وهواها، وهناك من يؤمن بالعلمانية، فلا يرى الإسلام إلا في المساجد، ولا يعرف موطناً للقرآن غير القبور والمآتم، وبعضهم جاهل بالحقيقة الكبرى لهذا الدين، ورسالة هذا القرآن، وبعضهم يرى الدين مجرد طريقة روحية.. لا منهج حكم وحياة.

وهذه الصور كلها.. لا يليق أن يكون التعامل معها بأسلوب واحد، وموقف متشابه! فأحدهم ينطلي عليه اللين، ولا تليق به الشدة، والآخر يعامل بالشدة ولا يليق به اللين، والثالث متروك لحالته التي يقيّمها الداعية في ضوء الشرع والعقل دونما إفراط أو تفريط.. وليكن رجاء هدايته واختياره للحق، أحب إلى النفس من لعنه والخروج عليه، حتى تنغلق أبواب الفتن في حياة الناس، وتسلم دماؤهم وأعراضهم.

هناك أمور لا تبرأ الذمة فيها بمجرد الهمس في أذن الحاكم.

---

[1] - أخرجه الإمام أحمد ورواه ابن أبي عاصم في السنة، وصححه الألباني.
[2] - رواه البخاري ومسلم، واللفظ لمسلم.
[3] - مختصر صحيح مسلم، تحقيق الألباني.
[4] - رواه ابن أبي شيبه في كتاب الفتن.

لقد كانت هناك صور شديدة في مواقف النصح للحكام وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وهي لا تنافي الهدوء المطلوب والحكمة المرغوبة، فأصحابها كانوا من أولي العلم والتقدير، وهم أدرى بما يواجهون من صنوف الحكام.. والإنكار على الحاكم المسلم سراً، هو الأصل ما دام ذلك كافياً وكفيلاً لإحقاق الحق ودفع المنكر بأقل منه.

أما إن تعذر ذلك و خُشيَ من تفشي المنكر، و شيوع الفاحشة في الذين آمنوا، فيعدل عن هذا الأصل إلى ما لا يتم الواجب إلا به، و من ذلك الإنكار علانية لعلَّ ذلك يبلغ من كان له قلبٌ أو ألقى السمع و هو شهيد، فيبذل وسعه، و يبرئ ذمَّته في التصدي للمنكر و أهله قبل فوات الأوان..

روى مسلم في صحيحه:(أول من بدأ بالخطبة يوم العيد قبل الصلاة مروان، فقام إليه رجل، فقال: الصلاة قبل الخطبة، فقال: قد ترك ما هنالك، فقال أبو سعيد: أمَّا هذا فقد قضى ما عليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "مَن رأى منكم منكرًا، فليغيره بيده، فإنْ لم يستطع، فبلسانه، فإن لم يستطع، فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"

ولعل تاريخنا المجيد مليء بكثير من علماء الدين وأئمة الهدى، الذين حابهوا المنكر وصدحوا بالحق في وجه الطغاة الجبارين، غير هيابين ولا خائفين، وقد أوردنا لهم كتابًا مستقلا تحت عنوان (العمائم الثائرة) لنذكر بأخلاقهم وعزتهم وقوتهم في نصرة الحق وصد الظلم والزهد في الدنيا ومتاعها وغرورها.

المحتويات

مقدمة ٤
حاجتنا إلى تربية الشيوخ ٦
العلماء ليسوا كهنوتًا ٨
ليسوا معصومين! ١١
الشيوخ المقدسة ١٤
اغتيال العلماء ١٧
اختلفوا بأدب ٢١
أزمة التربية ٢٤
فقهاء يخونون الأمة ٢٥
عار لا ينمحي ٢٩
لا تظلموا أعلامكم ٣١
سلفيون يفتقدون الأدب ٣٥
الانتصار على الظلام ٣٩
المشايخ لا يقرؤون ! ٤٣
شيوخ يسحقون الشيطان ٤٦
فروا من المناصب ٤٨
الموت يذهب بالأحقاد ٥٠
الأزهر.. ليس شريفًا كله! ٥٤
شيوخ أغراهم بيانهم ٥٧
اجلدوا الزنكلونيين ٦٠
منابر الكراهية ٦٣
دستور أخلاق العلماء ٦٦
حماقة الحرفيين ٦٩
حقد العلماء؟! ٧٣
الغيرة الإبداعية ٧٨
الداعية ليس لسانًا فقط ٨١
فتنة التلاميذ ٨٤
العمائم الخائنة ٨٦
العالم الذي سرق! ٨٨
مصر بلد البخاري ٩٠
عادة مصرية! ٩٢
الذين يهدمون تراثهم ٩٥
المرأة في حياة العلماء ٩٨
الفتية المتطاولون ١٠١

أقزام تجابه القمم ١٠٣
التآمر على القيادة المؤمنة ١٠٦
البطولة المدهشة ١١٠
معركة عيد الميلاد ١١٤
لا تخلط! ١١٧
دعني أقبل يديك ! ١٢٠
حينما تكون الشجاعة حماقة ١٢٣
انتصروا لشيوخكم ١٢٥
الغارة على الشعراوي ١٢٧
الحويني لم ينسلخ من جلده ١٣٠
الدعوة التي هدمت دولة! ١٣٢
أين الأزهر وشيخه؟! ١٣٤
نصيحة الحاكم كيف تكون؟ ١٣٦
جعلوني حنفيًا ١٣٩
المرابطون بالنصيحة ١٤١